مثالب الوزيرين
لأبي حيان التوحيدي

بين معالم الشخصية وملامح الفن النثري

إعداد

الدكتور/ حسن بن أحمد النعمي

الأستاذ المساعد بقسم الأدب بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام

محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي
بين معالم الشخصية وملامح الفن النثري

إعداد الدكتور

حسن بن أحمد النعمي

الأستاذ المساعد بقسم الأدب بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

المقدمة

لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فعندما كنت طالباً في المستوى الثاني أثناء دراستي الجامعية، كان يدرّس لنا مادة "تاريخ الأدب" أستاذنا الدكتور/ عبد القدوس أبوصالح – حفظه الله – وكان الحديث عن النثر العباسي وعن الجاحظ بصفة خاصة، وفي يوم من الأيام، وبينما أستاذنا يتحدث عن أبي عثمان، إذ بي أسمعه يتحدث عن "حرفة الأدب" فشدني حديثه، لاسيما بعد أن وجه إلى الطلاب سؤالاً عنها، حيث خيّم على القاعة صمتٌ مطبق، مما دفع أستاذنا إلى إنقاذ الموقف والبدء بالحديث عنها، وعن بعض من أصيبوا بها، وكان الحديث عن أبي حيان التوحيدي، الذي لم أسمع به من قبل.

ذهبت بعد ذلك أبحث عن هذا الأديب الكبير، وعن مؤلفاته، وكنت أتعجب كما تعجّب من قبلي كثيرون مما لقيه من تجاهل أدّى إلى حجب كنز من كنوز أدبنا العربي العظيم.

وكان من حسن حظي أن أول كتاب أطلع عليه من مؤلفات أي حيان هو كتاب "مثالب الوزيرين" أو "أخلاق الوزيرين" فألفيته كتاباً لا يقلّ أهمية عن كتب الجاحظ أو ابن قتيبة، إذ كان في الروعة لا يبارى، وصاحبه في القدرة على التأثير والإبداع لا يجارى.

لا أريد أن أمدح أبا حيان في هذه المقدمة، ولكن هذه مشاعري عند أول وهلة أتعرف فيها على كتبه، ومنذ ذلك الحين وأنا أقدّم رجلاً وأؤخر أخرى للوقوف على مؤلفاته مرة أخرى، والعودة إلى النظر فيها وتأمل شخصيته من خلالها، حتى كان صيف عام ١٤٢٧هـ إذ أوكل إلي تدريس مادة النثر العباسي، فتذكرت وأنا أعد محاضراتي الجامعية عن عصر أبي حيان وكتبه وأثره في نثر القرن الرابع الهجري.

وعند عودتي لما كتب عن أبي حيان التوحيدي فوجئت بتناقض الأخبار، وتعارض الآراء في كل شيء صَغُرَ أم كبر في حياته وسيرته، ولم يكد يسلم له شيء من خبر ولادته إلى وفاته، إذ كثر التخمين والافتراض، والدس والتشويه بقصدٍ حيناً أو بغير قصد أحياناً، ولايعني هذا أنه لم تكتب عنه دراسات جادة تليق به ، كلا ، فهناك دراسات مهمة من أبرزها الدراسات التي واكبت الاحتفالية بمناسبة مرور ألف عام على وفاته ، ولكن لا زال الغموض يكتنف شخصيته .

لقد فرض ذلك عليّ أن أتخذ لنفسي منهجاً محدداً لدى التعرف على حياة أبي حيان أو عند الوقوف على ما قيل فيه، فرأيت أن الأفضل هو أن أترك كل الفرضيات السابقة جانباً وأن أبحث عن الحقيقة في كتب الرجل نفسه؛ لأنها هي العمدة لا غيرها.

وفوجئت -أخرى- أن تلك المادة التي أبحث عنها في الكتب لم تكن كافية بالقدر المطلوب؛ لعدم تطرقه للحديث عن نفسه إلا لماماً،

إذ إنه قرّب لنا صور أكثر الناس الذين خالطهم وتواصل معهم، وترك نفسه عرضة للآخرين يتصرفون بها كيف شاءوا، يتبع كلّ هواه، أو نزعته الأدبية والمذهبية.

وعندما تأملت كتب أبي حيان وجدت أن أقربها لتمثيل شخصية الرجل هو كتابه "مثالب الوزيرين"، إذ يجد قارئه أنه أمام كتاب جمع فيه صاحبه كثيراً من العلوم والفنون، فكان دوحة أدب، وحلقة علم؛ ينبئ عن سعة ثقافة، ومهارة عرض، فتارة تراه في مجلس وزير، وأخرى تجده مع النحاة، وثالثة بين الفلاسفة يحاورهم، بأسلوب فكه أحياناً، أو بتجريح وحدّة في أحايين كثيرة.

وللوقوف على شخصية أبي حيان التوحيدي من خلال كتابه هذا، رأيت أن تكون خطة البحث مبنية على مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة.

أتحدّث في المقدمة عن سبب اختياري لهذا الموضوع، والمخطط الذي سأسير عليه، أما التمهيد فهو دراسة مختصرة لعصر أبي حيان -القرن الرابع الهجري- في النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية.

تلا التمهيد الفصلُ الأول بعنوان "حياة التوحيدي"، وذلك من خلال العناصر الآتية:

١- اسمه وكنيته ولقبه.
٢- أصله.
٣- مولده.
٤- حياته العلمية وتضم:

أولاً: نشأته.

ثانياً: صلاته برجال عصره:

أ- اتصاله بابني العميد.

ب- اتصاله بالصاحب بن عبّاد.

ثالثاً: مؤلفاته.

٥- شخصيته، وفيها:

أ- ثقافته.

ب- عقيدته.

ج- تشاؤمه.

د- فكاهته.

٦- وفاته.

ثم جاء الفصل الثاني، وهو بعنوان "دراسة الكتاب وتحليله"، وذلك في مبحثين، هما:

أولاً: الدراسة الموضوعية، وتشمل العناصر الآتية:

١- اسم الكتاب.

٢- موضوعه.

٣- زمن تأليفه.

٤- سبب تأليفه.

٥- صورة الوزيرين فيه.

٦- الآراء النقدية الورادة فيه.

٧- تعدد موضوعاته.

٨- منهج الكتاب.

ثانياً: "الدراسة الفنية التحليلية"، وذلك من خلال:

١- براعة التصوير ودقة التحليل.

٢- المبالغة والتهويل.

٣- الرسم الساخر.

٤- طول النفس وقصره.

٥- الثراء اللغوي.

٦- موقفه من البديع.

٧- صوت النص النثري وإيقاعاته.

وأخيراً: جاءت الخاتمة مشتملة على أهم نتائج البحث وما خلص إليه من معالم متأنية حول شخصية أبي حيان وكتابه "مثالب الوزيرين".

ثم ذيلت البحث بعد ذلك بثبت للمصادر والمراجع وفهرس للموضوعات الواردة فيه.

التمهيد

أولاً: الحياة السياسية:

في غضون القرن الثالث عشر الهجري، بل وفي العقد الأخير منه بدأ الضعف يدبّ في الدولة العباسية، فتشتت شملها، وتفرقت وحدتها، وتقسمت إلى دويلات صغيرة متناحرة، يؤول أمرها إلى جماعات من متغلبي الأعاجم كالأتراك والفرس والديلم، فلم يبق للخليفة العباسي العربي أي سلطة فعلية سوى مجرد الاسم.

وما أن دخل القرن الرابع الهجري الذي ولد فيه "أبو حيان التوحيدي" حتى كان مرتعاً خصباً للفوضى، ومهبطاً واسعاً لانتشار الفتن، وذيوع الاضطرابات، والعبث بكل ما كان من شأنه حفظ الأمن واستتبابه، "إذ عاث سوس الفساد في ذلك الجسم العظيم، وتناثر عقد البلاد الإسلامية، وانتقصت من أطرافها، والأهواء مشتتة، والنفوس شعاع"(١).

وكان من تلك الدويلات التي بسطت نفوذها الدولة البويهية، فقد سيطرت على العراق وجنوبي فارس زهاء قرنٍ ونيّف، بدأت سنة ٣٢٠هـ وانتهى أمرها سنة ٤٤٧هـ. وبنو بويه قوم مرتزقة من الفرس، كانوا لا يخجلون ولا يترددون في الانتقال من خدمة قائد إلى خدمة قائد آخر يدفع أكثر(٢). ويدّعون أنهم من سلالة بني ساسان ملوك الفرس، وهم شيعة علويون، وقد نشأت دولتهم في كنف الفوضى العارمة، واستغلوا ضعف الخلفاء العباسيين، واستبداد الأتراك بهم، وأول الأمر أن "بويه" الفارسي كان له ثلاثة أولاد هم "علي" والذي لقّب فيما بعد بـ "عماد الدولة"، و"حسن" ولقّب بـ"ركن

(١) أمراء البيان، لمحمد كرد علي، دار الأمانة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ: ٤٤٥.

(٢) انظر: تجارب الأمم، لمسكويه، شركة التمدن، ١٩١٥م: ٥/٤٣٥.

الدولة"، و"أحمد" ولقّب بـ "معزّ الدولة"، وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الدولة واقتسموها فيما بينهم، وكانوا يتعصبون للفرس، وتجري في دمائهم النزعة الشعوبية، ويسيطر عليهم التشيّع القوي لدرجة أن معزّ الدولة عندما دخل بغداد فاتحاً أراد أن يعزل الخليفة السنّي، ويقيم مكانه أحد العلويين، كما فعل الفاطميون، ولكنّه عدل عن ذلك بعد نصيحة من خاصته.

وقد امتاز "بنو بويه" بصفات أهّلتهم للزعامة، وثبتت أركان ملكهم، وأدخلتهم التاريخ، منها: أنهم كانوا يرعون الأدب ورجاله، ويغدقون الهبات للعلماء، ويشجّعون على الإنتاج والإجادة على الرغم من بعدهم عن الثقافة العربية[1].

وقد حرصوا على جمع المادة وادخارها، فقد جمعوا من المال الشيء الكثير، بالإضافة إلى جشعهم في استقطاب بلاد المسلمين إليهم مكراً وخداعاً، وكان لمغالاتهم في التشيع الأثر الأكبر في إثارة الفتن الداخلية، فبغداد كما هو معلوم كانت عامرة بأهل السنة والجماعة، وكانت تنشب الفتن والحروب فيها فلا يستطيع الخليفة أن يفضّها لضعفه، ولا السلطان لتحيّزه لشيعته، وكان العامة ينتهزون هذه الفرص، ويكثرون السلب والنهب، فتشيع الفوضى، ويعمّ الاضطراب.

بالإضافة إلى أن "بني بويه" كانوا قساة، غلاظ القلوب، معروفين بالسطوة والجبروت، ولذا فقد امتلأ تاريخهم بأخبار الويلات والمآسي التي حلت بالناس جرّاء حكمهم، فهذا "عضد الدولة" قبض على "أبي

(١) انظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، لآدم متز، ترجمة عبدالهادي أبي ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م: ١/٣٤ – ٣٧.

الفتح بن العميد"[1] وزير أبيه، فسمل عينيه، وقطع أنفه ثم قتله؛ لأنه اتصل بالعدوّ كما يزعم. وطلب من ابن عمه عز الدولة بن معز الدولة أن يسلم له "ابن بقية" الوزير لأمور ساءته منه، فسلّم إليه مسموماً، فأمر عضد الدولة بأن يشهّر به في العسكر على جمل، ثم يلقى به تحت أرجل الفيلة، فقتل شرّ قتلة، ثم صلب على شاطئ دجلة، وهو الذي رثاه محمد بن عمران الأنباري بقصيدة غنّى بها الزمان وطرب، ومطلعها:

علوٌّ في الحياة وفي الممات ∴ لحقٌّ تلك إحدى المعجزات[2]

ومما يروى أن عضد الدولة لمّا سمع القصيدة تمنّى أنه هو المصلوب، وأن القصيدة قيلت فيه.

وكان القرامطة خلال ذلك القرن يعيثون في العراق والشام فساداً، بعد أن عبثوا بمقدّسات الأمة في الحجاز، وكذلك كان شأن غيرهم من الخوارج والنزّاع إلى الفتن، أمّا الروم فكانوا يغادون الشام ويراوحونها ويثيرون الفتن بين الدويلات والإمارات الإسلامية الصغيرة المجاورة لهم، على أن دولة بني حمدان قد كفت البلاد عادياتهم، وحدّت كثيراً من أطماعهم التوسعية[3].

ثانياً: الحياة الاجتماعية:

كانت الحياة الاجتماعية متأثرة وشبيهة بالوضع السياسي في العصر؛ من حيث الاضطراب والفوضى وفقدان الاستقرار الذي يعدّ من أهم عوامل الازدهار الاجتماعي.

---

(١) ستأتي ترجمته عند الحديث عن صلة أبي حيان التوحيدي به في الفصل الأول.

(٢) انظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، للثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة حجازي، ٢/ ٣٧٣، وتجارب الأمم، لمسكويه ٦/ ٣٧٧.

(٣) انظر: أمراء البيان، لمحمد كرد علي: ٤٤٧.

ومن مظاهر هذا الاضطراب وتلك الفوضى التباعد بين الطبقات، وسوء التوزيع للثروة العامة، وفشوّ الاستغلال، والترف والبذخ في الطبقات العليا على حساب الطبقات الدنيا، فحرم كثير من أفراد الشعب، حتى المفكرون منهم، القوتَ الضروري؛ ولقد أثار أبو حيان التوحيدي قضية البؤس الذي انحدر إليه كثير من الناس في مواطن متعددة من كتاباته، ومن ذلك ما رواه عن أنّ أبا سليمان المنطقي السجستاني ، سيد علماء عصره كان "بحاجة إلى رغيف، وحولُه وقوتُه قد عجزا عن أجرة مسكنه ووجبة غدائه وعشائه"(١). وكان أبو سعيد السيرافي "عالم العالم وشيخ الدنيا، ومقنع أهل الأرض – على حد قول تلميذه التوحيدي– ينسخ في اليوم عشر ورقات بعشرة دراهم ليعيش"(٢). وكان المعافى زكريا النهرواني ذا أنسةٍ بسائر العلوم، شاهده تلميذه التوحيدي في جامع الرصافة "وقد نام مستدبر الشمس في يومٍ شات، وبه من أثر الفقر والبؤس أمر عظيم، مع غزارة علمه، واتساع أدبه، وفضله المشهور"(٣).

وقد زاد الحالة سوءاً كثرة الضرائب، واشتداد وطأة الإقطاع، وفرض الرسوم، وحرص البويهيين على جمع الأموال، ولعله من الطبيعي جداً أن تتأثر الآداب والفنون بهذه الحالة الاقتصادية السيئة، فانساق الأدباء والمفكرون إلى أبواب الخلفاء والأمراء طلباً للرزق والعطاء، وكان جلّ همّ أحدهم الاتصال بوزير أو أمير ينسى بقربه الفاقة والعوز؛ مما أثر ذلك في حياة الأدباء، فأصبحت حياتهم تسير

(١) الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت: ١/ ١٣٠.

(٢) المقابسات، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق حسن السندوبي، المكتبة التجارية، مصر، ١٩٢٩م: ٢٣.

(٣) معجم الأدباء، لياقوت الحموي، طبعة الرفاعي، دار احياء التراث العربي، ط ٢ ١٩٢٢، ١٩/ ١٥١.

في جوّ الدسائس، والمؤامرات والنفاق والتناحر، فبَعُد الأديب عن المثالية، والترفع عن الدنايا، وحصر جهوده في الحصول على المجد والثروة، ولذا جفّ ينبوع العاطفة الصادقة، وساد في الأدب الاستعطاف والضراعة، ولذلك إذا أحصيت الأدب الذي قيل في المديح رجحت كفته على الأدب الذي قيل لباعث نفساني[1]. ومن آثار ذلك أن أصحاب السلطة عمدوا إلى الاعتداء على الرعية، ومصادرة الأموال؛ سدًّا لحاجاتهم الإسرافية إلى المال، مما دعا الناس إلى الظهور بمظهر الفاقة، فمدحوا الفقر وذمّوا الغنى، وسرت فيهم روح الكآبة والتشاؤم، وذمّوا الزمان وأهله، وشكوا الظلم؛ مما كان لهذا صداه الواضح في أدب العصر ونتاجه الفكري.

ثالثاً: الحياة الثقافية:

على الرغم من أن هذا العصر كان عصر قلق واضطراب وفوضى، أي عصر انحطاط سياسي، على الرغم من هذا، إلاّ أنه كان يقابله رقيٌّ عقلي، فالقرن الرابع الهجري – كما يثبت المؤرخون – هو عصر رقي العلم والأدب وسائر الفنون؛ فكأن رقيَّ العلوم والفنون في عصور الفوضى والاضطراب على مر التاريخ إنما هو ردّ فعل أو احتجاج راقٍ نحو التفاعل مع الأحداث بشكل إيجابي.

وفي ظل التنافس بين بني بويه وأمراء الأقاليم الأخرى شُجّع العلم والأدب، وقربت فئات كثيرة ومنهم حملة الأقلام وأرباب البيان، إذ أصبح أساس الاختيار للوزارة شيئين هما: القدرة الإدارية والتمكن من البلاغة[2].

(١) انظر: ظهر الإسلام، لأحمد أمين، مكتبة النهضة المصري، ١٩٥٥م: ١٢٠.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٢٥٥.

وقد عرف هذا العهد وزراء احتلوا مكانة مرموقة في تاريخ الأدب العربي، منهم: أبو الفضل بن العميد وولده أبو الفتح، والصاحب بن عبَّاد ، الذي جعل داره مجمعاً لجماعات الكتّاب والمنشئين والمتكلمين والفلاسفة والقراء، وليس من الحقيقة في شيء قول أبي حيان التوحيدي عنه: "وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون؟"[1].

وكذلك الوزير المهلبي (...-٣٥٢هـ) الذي كان غاية في الأدب والمحبة لأهله، وكذلك بهاء الدولة أبو نصر سابور بن أردشير ، وابن سعدان وزير صمصام الدولة، وغيرهم كثير.

وبهذا الاعتناء، وذاك التشجيع أنجبت دولة بني بوية نوابغ المفكرين من العلماء والأدباء والفلاسفة والفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصحاب المذاهب المختلفة، وعم النشاط الفكري مدناً كثيرة في العراق وفارس كبغداد والبصرة والكوفة والري وأصبهان وشيراز وسيراف وغيرها، على أن بغداد على ما أصيبت به من ضعف سياسي ظلّت محتفظة إلى حد ما ببقايا ذلك كله - أعني العلم والأدب -، وآية ذلك "أنَّ جميع الحركات الروحية في مملكة الإسلام كانت تتلاطم أمواجها في بغداد، وكان فيها لجميع المذاهب أنصار"[2].

(١) الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، شرح علي متولي صلاح مكتبة الآداب، ١٩٧٢م: ٣٠.

(٢) الحضارة الإسلامية، لآدم متز ١/ ١١٠ - ١١١.

الفصل الأول
حياة التوحيدي

١ ـ اسمه وكنيته ولقبه:

هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي[١]، هكذا ورد في كتب المؤرخين، وانفرد عنهم معين الدين أبوالقاسم الجنيد الشيرازي – من رجال القرن السابع – في كتابه "شدّ الإزار عن حط الأوزار"، فقد سمّاه: "أبو حيان أحمد بن العباس الصوفي التوحيدي"[٢]، والأول هو الأرجح لإجماع المؤرخين وأكثر الأدباء عليه.

أما كنيته فهي أبو حيان"، ويلقب بـ "التوحيدي"، وقد ردّد كثيراً تلك الكنية في كتبه "أبا حيان"، ومن ذلك قوله: "وقال لي يوماً آخر – أعني ابن عبّاد –: يأ أبا حيّان، مَن كنّاك أبا حيان؟ قلت: أجلُّ الناس في زمانه، وأكبرهم في وقته، قال: من هو ويلك؟ قلت: أنت! قال: ومتى كان ذلك؟ قلتُ: حين قلتَ لي يا أبا حيان..." [٣].

وقد ذكر في مقدمة كتابه "الإمتاع والمؤانسة" كنيته ولقبه[٤]، والغريب في الأمر أنَّ أبا حيان وقد تحدّث عن كثير من الناس من حوله، فأتى على الخاصة والعامة، والملوك والسوقة، لم يشأ مرة واحدة أن يتحدث عن أسرته لأبيه أو أمّه، بل لم يتحدث عن أي وشيجة قرابة له بأحد من الناس، والظاهر أنَّ كنيته ولقبه قد غلبا على اسمه حتى في حياته.

---

(١) انظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٥/ ٥، وميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، مكتبة عيسى الحلبي، القاهرة ٤/ ٥١٨

(٢) انظر: أبو حيان التوحيدي، لعبدالرزاق محيي الدين، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ط٢ ١٩٧٩م: ٧.

(٣) مثالب الوزيرين، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق ١٩٦١م: ٢٠٤.

(٤) انظر: الإمتاع والمؤانسة، للتوحيدي ١/ ١.

وقيل في سبب تلقبه بالتوحيدي أنَّ أباه كان يبيع نوعاً من التمر يسمى التوحيد، وهو الذي قصده المتنبي بقوله:

يترشفنَ من فمي رَشَفاتٍ ∴ هنَّ فيه أحلى من التوحيدِ[1]

فيما يراه أنصار المتنبي والمدافعون عنه.

ويرى بعض الباحثين أن هذا اللقب يحتمل أن يكون نسبه إلى التوحيد الذي هو الدين؛ لأنَّ المعتزلة يسمّون أنفسهم "أهل العدل والتوحيد"[2].

والاحتمال الأخير قائم على اعتبار أن أبا حيان من المعتزلة، وهذا بعيد – مع شهرته – فليس هناك دليل على أنه من المعتزلة، بل إنَّ كتاباته، ومعاركه الأدبية التي خاضها تعطي دليلاً عكسياً؛ فقد هاجم المتكلمين والمعتزلة بصفة خاصة، وأكثر من هجائهم، وألصق بهم أشنع الأوصاف – كما سيأتي –، وفي كلامه ما يشعر بأنه لم يكن يحترم تسمية المعتزلة لأنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وفي هذا ما يضعف أنه نسب إلى ما يسمى به المعتزلة أنفسهم من العدل والتوحيد، ومن ذلك ما قاله في حديث له عن الصاحب بن عباد: "وكان مع هذا المذهب الذي يدلّ به، ويسميه العدل والتوحيد، قليل التوجه إلى القبلة، قليل الركوع والسجود..."[3]. وعلى هذا فالاحتمال الأول أقوى وأظهر، وهو نسبته إلى حرفة والده.

---

(١) انظر: شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، للمعري، تحقيق د. عبدالمجيد دياب، دار المعارف، مصر ١/ ٧١.

(٢) انظر: أبوحيان التوحيدي، للدكتور أحمد بن محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م: ٤٤، نقلاً عن لسان الميزان، لابن حجر، وانظر: أمراء البيان، لمحمد كرد علي: ٤٤٩، فقد رجح تلك النسبة.

(٣) مثالب الوزيرين، للتوحيدي: ٨٢

٢ ـ أصله

وكما اختلف المؤرخون في ميلاده اختلفوا كذلك في أصله، فمن قائل: شيرازي الأصل وآخر يقول بأنه نيسابوري أو واسطي[١] إلى قائل "بأنه عربي، ولم يكن يعرف الفارسية"[٢]، وهو قول لمحمد كرد علي ذكره من دون أي دليل يثبت ذلك، ولكن مع هذا فرأيه صحيح – كما سوف نرى –، وقد جعل ذلك أحد الباحثين يقول: "ولكن ما عرف به "كرد علي" من التعصب للعرب، وقصور حجته عن إثبات عروبة الرجل أضعف قيمة رأيه، وساد بين الناس أنه فارسي الأصل"[٣].

وإذا كان ياقوت الحموي قد قال عنه: "إنه عمدة لبني ساسان، سخيف اللسان"[٤]، فهو يقصد بذلك نسبته إلى الفقر والسؤال والكدية. ويأخذنا العجب من زكي مبارك حين يقول: "ويكفي أن تعرف أنَّه فارسي الأصل..."[٥]، مستدلاً بدليل ضعيف وهو أنه ورد تاريخ وفاته في تاريخ شيراز"[٦]، وقال السندوبي في تقديمه كتاب "المقابسات": "لا شك أنه فارسي الأصل"[٧]، ورجح أحمد الحوفي أنَّه عربيّ[٨]، وكذلك عبدالرزاق محيي الدين[٩]، ولم يكن هذا الخلاف

(١) انظر: أمراء البيان، لمحمد كرد علي: ٤٤٩
(٢) أمراء البيان، لمحمد كرد علي: ٤٤٩.
(٣) أبو حيان التوحيدي، لعبدالرزاق محيي الدين: ١٤.
(٤) معجم الأدباء، لياقوت ١٥/ ٥.
(٥) النثر الفني في القرن الرابع، للدكتور زكي مبارك، المكتبة العصرية، بيروت، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٤م: ٢/ ١٦١.
(٦) انظر المصدر السابق ٢/ ١٦١.
(٧) مقدمة كتاب "المقابسات" للتوحيدي، للسندوبي: ٨.
(٨) انظر: أبو حيان التوحيدي، للدكتور أحمد الحوفي: ٥٠.
(٩) انظر: أبو حيان التوحيدي، لعبد الرزاق محيي الدين: ١٨.

يهمني في شيء لولا أنَّه يعينني على تبيّن مصادر ثقافته، وطبيعة مزاجه، وأثر الدم الأصيل في فنّه الأدبي، وتفكيره الفلسفي.

وبعد النظر والتأمل نجد أن هناك كثيراً من الحقائق العلمية تؤكد على أنَّه عربي الأصل، سأذكر بعضاً منها للحقيقة فقط، وليس تعصباً لعروبة أو غيرها، ومن تلك الأدلة:

أولاً: ليس في مؤلفات أبي حيان ما يشير إلى فارسيته من قريب أو بعيد، ولو أنه كان يمتّ إلى الفرس بأدنى صلة لفاخر بذلك في عصر كانت الصولة فيه للفرس[1].

ثانياً: أنَّ كتاب" شيراز نامة" – وهو أدق المصادر في تاريخ الفرس – ذكر أن أبا حيان بغدادي وفد على شيراز[2].

ثالثاً: كان أبو حيان يجهل الفارسية باعترافه، فلو أنَّه كان فارسيَّ الأصل لحاول تعلّم لغة قومه، وخاصة أنَّه أقام بشيراز وبعض عواصم فارس سنوات، فقد ذكر أنّه حين وصل إلى الصاحب بن عباد قال له: "أبو مَنْ أنت؟ قلت: أبو حيان؛ قال: بلغني أنك تتأدب.. قال: فقل لي: أبو حيان ينصرف أولاً؟ قلت: إن قَبِلَهُ مولانا لا ينصرف، فلما سمع هذا تنمَّر وكأنه لم يعجبه، وأقبل على واحدٍ إلى جانبه فقال له بالفارسية سفهاً، على ما فُسِّر لي"[3]. فهذا نصٌّ صريح يدل على أنه لم يفهم السفه الذي قال ابن عباد بالفارسية، وأنه ترجم له فيما بعد.

رابعاً: مما يعزز هذا الرأي موقفه من أعداء العرب، ومدحه للعرب في جاهليتهم وإسلامهم، والمطلع على دفاعه عن العرب في

---

(١) انظر: أبو حيان التوحيدي، رأيه في الإعجاز، وأثره في الأدب والنقد، لمحمد عبدالغني الشيخ، الدار العربية للكتاب، بيروت، ١٩٨٣م: ١/ ١٥٧.

(٢) انظر: أبو حيان التوحيدي، للحوفي: ٥١.

(٣) مثالب الوزيرين، لأبي حيان التوحيدي: ٢٠٣.

ردّه على الجيهاني ، يوقن أنَّه عربي ومتعصب لكل ما هو عربي. فهو يبدي عجبه من الجيهاني في أول الأمر ثم يندفع كالسيل الهادر في مهاجمته، ونصرة العرب والزرايةّ على الفرس، حتى يأخذ عليه كلّ منفذ، فيما يقرب من عشرين صفحة(١).

وأخيراً فليس هناك ما يدل على فارسيته لا من قريب أو من بعيد، ويقول عبدالرزاق محيي الدين: "ولقد كان بودّي أن يكون أبو حيان فارسياً يمتدح العرب؛ لأستدل به على فضل قومي، وإنصاف صاحبي، ولكن أنَّى لي بهذا، وليس في القرائن ما يدل على فارسيته"(٢).

٣ ـ مولده

قبل الحديث عن مولده، لا بد من الاعتراف بأن الغموض لم يحط بشيء من شخصيته مثلما أحاط بمولده، إذ نجد أن للمؤرخين في ذلك آراء متضاربة جعلت ياقوت الحمويّ يبدي دهشته قائلاً: "لم يذكر التوحيدي في كتاب، ولا دمجه أحد ضمن خطاب، وهذا من العجب العجاب"(٣).

وأما أنا فعجبت كثيراً من زكي مبارك حين يقول: "لا تسأل متى ولد، ولا أين ولد فذلك رجلٌ نشأ في بيئة خاملة لم تكن تطمع في مجد حتى تقيّد تاريخ ميلاد"(٤).

لهذا كان من الصعوبة بمكان تحديد زمن مولده تحديداً قاطعاً، وأقرب الظنّ عندي أنه ولد سنة ٣١٠هـ في بغداد، حيث كانت تقيم أسرته، ويعمل والده في تجارة التمر، ويستدلّ على هذا بكلام

(١) انظر: الإمتاع والمؤانسة، للتوحيدي ١/ ٧٨ – ٩٦.
(٢) أبو حيان التوحيدي، لعبدالرزاق محيي الدين: ١٨.
(٣) معجم الأدباء، لياقوت الحموي ١٥/ ٦.
(٤) النثر الفني، لزكي مبارك ٢/ ١٦١.

أبي حيان نفسه، فقد كتب رسالة سنة ٤٠٠هـ[١] إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد (-) يعتذر فيها عمَّا أقدم عليه من إحراق كتبه، قال فيها: "وبعد، فقد أصبحت هامة اليوم أو غدا، فإني في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة، أو رجاء لحال جديدة..." [٢].

وهذا لا يخرج عن كونه مجرد ترجيح وظنّ، أما ما ذكره الدكتور إبراهيم الكيلاني من أنَّ أبا حيان ألَّف المقابسات سنة ٣٦٠هـ وكان عمره وقت تأليفه خمسين سنة بدليل قوله: "وماذا يرجو المرء بعد الالتفات إلى خمسين حجَّة، وقد أضاع أكثرها، وقصّر في باقيها؟..."[٣]، فلا يفيدنا في شيء؛ لأنَّ أبا حيان ذكر في "المقابسات" بعض الحوادث والتواريخ بعد سنة ٣٦٠هـ فقد قال: "أملى أبو سليمان على جماعة كنت أحدهم سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة"[٤]، وإذن فلا يصحّ بأن "المقابسات" قد ألّف سنة ٣٦٠هـ.

ومهما يكن فذلك الخلاف في تحديد ميلاد علم من أعلام الأدب العربي هو طابع القرون الخالية، ولازمة لازمت أبا حيان في كثير من شؤونه، حيث لقي التجاهل وعدم الاكتراث من كثير من معاصريه ومؤرخي جيله.

٤ـ حياته العملية

أولاً: نشأته:

لم يشر أبو حيان من قريب أو من بعيد إلى نشأته أو إلى أسرته، وقد يرجع سبب هذا الإغفال إلى شعوره بأن أسرته من أوساط

---

(١) انظر: المقابسات، لأبي حيان التوحيدي: ١١٤.
(٢) المقابسات، لأبي حين التوحيدي: ١١١.
(٣) أبو حيان التوحيدي، للدكتور إبراهيم الكيلاني، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، د. ت: ١٢ – ١٣.
(٤) المقابسات، لأبي حيان التوحيدي: ٢٨٦.

الناس، فلا مزية أو مزيد فضل في الحديث عنها، ولكي لا يضع الطعم لأعدائه وما أكثرهم.

وكذلك فشحّ الأخبار التي تعيننا على فهم السيرة الكاملة له قد يرجع إلى أنّه لم يشأ على ما يبدو إطلاع الناس على تفاصيل حياته؛ وتلك صفة ليست بغريبة على كثير من أعلام القرون الماضية، فهناك رجال ملأوا الدنيا وشغلوا الناس، لم يفصحوا عن دواخل حياتهم، فلماذا يعتبر بعض مؤرخي الأدب أبا حيان بدعاً منهم، أو أنه رجل غامض لمجرد أنّه لم يفصح عن طفولته وصباه وشبابه، أو كيف كانت أسرته تعيش؟.

وعندما أردت الوقوف على بعض ملامح نشأته رأيت أن أتوجه إلى مؤلفاته والمصادر التي كتبت عن المرحلة التي عاشها، وهذا في رأيي هو المنهج الصحيح الذي يرتضيه المنهج العلمي، بدلاً من وضع صورة خيالية لحياة أبي حيان بناء على التوقعات وهو ما فعله بعض الباحثين(١).

إنّ أول ما يواجهنا عند محاولة التعرف على ملامح حياة أبي حيان هو فقره المدقع الذي لاقاه في صباه، حيث كان يعيش في كنف عمه وكفالته، الذي كان يسيء معاملته، ويقتّر عليه، كما روى ذلك التوحيدي في حديث عابر(٢).

ونجده كذلك يفقد أمّه – التي انتقلت إلى جوار ربّها – وهو صغير، فيقول: "إنّي لا أكاد أنساها، ولا أذهل عن شأنها، وشأني معها، هذا على بُعد عهدي بها، وامتداد الزمان بيني وبينها؛ لأنها

(١) انظر مثلاً حديث عبدالرزاق محيي الدين عنه في كتابه: أبو حيان التوحيدي: ٢١ – ٢٢.

(٢) انظر: البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق الدكتور: إبراهيم الكيلاني، مكتبة أطلس، دمشق، ١٩٦٤م: ٢/ ٤٧٥.

صارت إلى جوار الله وأنا غلام»[1]. ومن كلامه هذا نستشفّ ما وراءه من حرمانٍ وذكريات بعيدة المدى أثار لواعجها في قلبه حديث أحد العلماء[2] عن فضل الأم وأثرها على ولدها.

والظاهر أنَّ أبا حيان كان يتحدث عن نفسه حينما قال: "وهكذا اشتدَّ في طلب العلم تشميره، واتصل في اقتباس الحكمة رواحه وبكوره، وكانت الكلمة الحسناء أشرف عنده من الجارية العذراء، والمعنى المقوَّم أحبَّ إليه من المال المكوّم"[3].

ويؤكد هذا ما عرف عن أبي حيان من انصرافه عن التفكير في الزواج وإنجاب النسل، يقول معللاً سبب إحراقه لكتبه: أنَّه لا يجدُ حوله لا "ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، أو صاحباً قريباً، وتابعاً أديباً"[4]. ولعل من الأسباب التي منعته من التفكير في الزواج ما يتصل بمزاجه وقلقه الدائم، وحاجته إلى المال، فلما تقدمت به السنّ عاف الزواج. وكذلك منعه من التفكير فيه اضطراره إلى التنقل والأسفار، وبذلك حرم الاستقرار، فلم يسعه أن يفكر في تكوين أسرة، إذ نجده يقول لأبي الوفاء المهندس : "قد أذلني السفر من بلدٍ إلى بلد، وخذلني الوقوف على باب باب، ونكرني المعارف بي، وتباعد عني القريب منّي"[5].

ومهما يكن من شيء فإن طفولة "أبي حيان" مازالت مجهولة، إذ ليس في مؤلفاته ما يكشف عن تلك الطفولة، وليس فيما كتب عنه شيء يمكن الاطمئنان إليه في هذه الفترة من حياته. واعتماداً على

(١) المقابسات، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق السندوبي ٢٧٥ – ٢٧٦.
(٢) هو أبو زكريا الصيمري .
(٣) الهوامل والشوامل لأبي حيان التوحيدي نقلاً عن أبو حيان التوحيدي، لمحمد الشيخ ١/ ١٦١.
(٤) معجم الأدباء، لياقوت الحموي ١٥/ ٢٦.
(٥) الإمتاع والمؤانسة، للتوحيدي ٣/ ٢٢٧.

ما يبدو من كتاباته ونظراته للحياة، وصمته التام عن طفولته وأسرته، وكذلك فترة صباه التي لم يفصح عنها، كلّ ما هنالك أنّه كان شغفاً بالمعرفة، نهماً إلى العلم، أيًّا كان هذا العلم، وقد أجاد بعض العلوم وهو مازال في سنٍّ مبكرة[1].

وبعد أن جاوز الثلاثين من عمره تظهر خطواته، وتتضح حياته، ونستطيع معرفة أساتذته ونشاطه وتنقلاته وأسفاره، وما صادفه من مشكلات، وما عقده من صلات. وهذه الفترة الواضحة المعالم من حياته كانت حافلة بالنشاط والحركة، والآمال. وفيها جرَّب حظه مع قادة الرأي والمسؤولين، ووزراء الدولة كابني العميد وابن عباد وابن سعدان، كما أنّه أنجز أكثر مؤلفاته قيما يبدو في تلك الفترة، وتنقل بين العز والذلّ، واليأس والرجاء، وبين كثير من الشيوخ، وظلّ على هذه الحال؛ من عدم الاستقرار حتى عام ٣٧٥هـ حيث عُزِلَ الوزيرُ "ابن سعدان" صديقه وسميره، ثم قتل بإيعاز من خصمه وخلفه في الوزارة. واختفى "أبو حيان" بعدها قيل أن يفتك به الوزير الجديد ضمن حاشية "ابن سعدان"، وكان قد هجاه[2]، فمن هذا الوقت حتى عام ٣٩١هـ يحيط الغموض بوجهة أبي حيان، فقد ذكر أنّ "أبا سليمان" أملى على جماعة كان هو أحدهم سنة ٣٩١هـ[3]، وبعد ذلك يظهر مرة أخرى، ويمارس نشاطه من جديد "يكتب ويؤلف، ويروى عنه الحديث، ويؤخذ منه، وينسخ"[4] فيعيد كتابة رسالة "الصداقة والصديق" حين يجدها في المسودة[5]. وفي العام نفسه يقدم على

(١) البصائر والذخائر لأبي حيان ٢/ ٤٧٥.
(٢) انظر: الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ٢/ ٢٦.
(٣) انظر: المقابسات، للتوحيدي: ٢٨٦.
(٤) أبو حيان التوحيدي، لعبد الرزاق محيي الدين: ٢٤.
(٥) انظر: الصداقة والصديق: ١٠، وانظر: أبو حيان التوحيدي، لمحمد الشيخ ١/ ١٦٤.

إحراق كتبه، وفي عام أربعمائة للهجرة يكتب كتاباً يعتذر فيه "للقاضي أبي سهل" عن إحراق كتبه[1]، وبعدها ينقطع إلى عبادة الله ويتزهد، ويغلب عليه التصوف، بعد أن غلب عليه اليأس، ووجد أنّ سعيه كله قد ذهب هباء؛ فلم ينتفع بصديق، ولم تجلب له كتبه نفعاً، وربما كانت سبباً في بعض الأضرار، بما ضمّنها من نقد للأوضاع، وهجاء لأشخاص لهم وزنهم، وقدرتهم على إيصال الأذى إليه حياً وميتاً.

ثانياً: صلاته برجال عصره:

أ- اتصاله بابني العميد:

١ – اتصاله بأبي الفضل بن العميد:

عندما ضاقت الأرض فقراً بأبي حيان، وساءت حاله، بدأ يقصد أبواب الوزراء، علّه يخرج من ضائقته المالية، وينال لديهم حظوة، فاتجه إلى الوزير المهلبي (...-٣٥٢هـ) الذي كان محباً لأهل العلم والأدب مما شجع أبا حيان على محاولة القرب منه، ولكنَّ أبا حيان لم يتفق والمهلبي، وذلك كما يقول الدكتور زكريا إبراهيم لمجاهرته ببعض الآراء الحرة، ولكنه سرعان ما عزم على الرحيل، ومغادرة بغداد للاتصال بأبي الفضل ابن العميد[2]، وكان لابن العميد في ذلك الوقت قدر مهيب، فقد كان الشعراء يقصدون بابه؛ لكرمه وسخائه، كما كان الناقدون يثنون عليه لفصاحته وبلاغته. ومن بين الذين

(١) انظر: معجم الأدباء لياقوت ١٥/ ٢٦.

(٢) أبو الفضل بن العميد هو: محمد بن الحسين العميد بن محمد أبو الفضل: وزير، من أئمة الكتاب. لقب بالجاحظ الثاني في أدبه وترسله. قال الثعالبي: بدئت الكتابة بعبدالحميد وختمت بابن العميد، ولي الوزارة لركن الدولة البويهي، له مجموع رسائل في مجلد ضخم، وشعر رقيق، توفي بهمدان سنة ٣٦٠هـ، انظر: الأعلام، للزركلي ٦/٩٨.

مدحو ابن العميد من الشعراء – كما هو معروف – "أبو الطيب المتنبي"، كما أثنى عليه من الفلاسفة "مسكويه" الذي عهد إليه ابن العميد بمنصب "خازن كتبه"(١). وكان أبو حيان ينتظر من ابن العميد أن ينقذه من براثن الفقر، وأن يسبغ عليه العطايا، إلاّ أنّ أبا حيان لم يظفر من ابن العميد بما كان يتطلع إليه، وفارقه ساخطاً عليه، ثالباً له، ملصقاً به كل نقيصة وعيب.

والغريب أنّ أبا حيان لم يوضح سبب الجفوة التي حدثت بينه وبين ابن العميد ولعلّ من الأسباب التي أدت إلى تلك الجفوة صراحة أبي حيان.

ومن الأسباب – أيضاً – أنّ "أبا حيان" لم يكن يتمتع بقدر كاف من اللباقة في معاملة الرؤساء، وقد وصفه صديقه "أبو الوفاء المهندس" بأنّه "غرٌّ، لا هيئة له في لقاء الكبراء، ومحاورة الوزراء"(٢)، في حين نجد أنّ في "ابن العميد" أبهة الفرس، وعظمة السلطان، وهما لا يجتمعان مع فظاظة "أبي حيان".

ومن الأسباب أنّ "أباحيان" كان معتداً بنفسه إلى الحدّ الذي كان يجرح شعور أصحاب السلطة من ذوي الجاه والأبهة، فنجده يقول عن ابن العميد عندما وفد عليه شاعر من الكرخ:" ولقد شاهدت في مجلسه شاعراً من الكرخ يعرف "بمموَيه" وكان جيّد اللسان يقول له: أيها الرئيس! قد لزمتُ فناءك لزوم الظلّ، وذللت لك ذلّ النعل، وخدمتُ أملي فيك خدمة ناصح لنفسي فيما التمستُ من الصلة والجائزة..." (٣). فذكر التوحيدي أنّ هذا الرجل لم يظفر من ابن

(١) انظر: تجارب الأمم لمسكويه ٦/ ٢٧٠ – ٢٧٢.
(٢) الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ١/ ٥.
(٣) مثالب الوزيرين للتوحيدي تحقيق إبراهيم الكيلاني: ٢٢١ – ٢٢٢.

العميد بفلس واحد، فلم يستطع أبو حيان أن يحتمل من ابن العميد مثل هذا الشحّ، فراح يشنّع عليه لبخله، ثم لم يلبث أن راح يحطّ من قدره في كتابه "مثالب الوزيرين" كما سنرى.

وربما كان الحسد من أهم الأسباب التي باعدت بين الرجلين، فابن العميد عالم أديب قبل أن يكون وزيراً، يثيره ويحنقه تفوق أبي حيان واعتداده، ولهذا نجد أبا حيان يقول عنه: "وكان... وارم الأنف، عظيم التيه، شديد الحسد لمن نطق ببيان، أو أفصح بالعربية"[1].

وليس من العدل في شيء أن يلام ابن العميد وحده على قطع هذه الصلة، فقد كان أبو حيان بسلوكه وعدم مرونته، من الأسباب والعوامل التي أنهت هذه العلاقة بهذه النهاية المؤلمة.

٢ – اتصاله بأبي الفتح ابن العميد (ذي الكفايتين):

تولى أبو الفتح علي ابن العميد[2] بعد أبيه الوزارة بالريّ سنة ٣٦٠هـ، وظلّ فيها إلى سنة ٣٦٦هـ حيث قُتل. ويبدو أنّ صلة أبي حيان به كانت في بغداد حيث قصدها أبو الفتح لينظّر أمور "بختيار" حيث لقب في تلك الفترة بذي الكفايتين[3]، وكان أبو الفتح في هذه الأثناء يعقد المجالس الأدبية ويبالغ في إكرام العلماء، وطلب من بعضهم الذهاب معه إلى الريّ، وبعد ذلك ذهب أبو حيان إليه بعد أن عاد إلى الريّ[4]، كما ذكر ذلك التوحيدي في رسالته التي استعطف

(١) مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٢١٣.

(٢) أبو الفتح هو: علي بن محمد بن الحسين، أبو الفتح ابن العميد: وزير، من الكتاب الشعراء الأذكياء، يلقب بذي الكفايتين، خلف أباه في الوزارة بالري ونواحيها سنة ٣٦٠هـ ولقبه الخليفة الطائع لله بذي الكفايتين (السيف والقلم)، وأحيته القواد والعساكر، قبض عليه آل بويه خوفاً منه، وقتل سنة ٣٦٦هـ. الأعلام ٤/ ٣٢٥.

(٣) انظر تجارب الأمم لمسكويه ٦/ ٣٠١ – ٣٧٧.

(٤) انظر مثالب الوزيرين ٢٧٠.

بها ابن العميد، والتي رواها للصاحب بن عباد عندما أمره أن يذكرها لقوله: "فاقرأ عليَّ رسالتك التي توسلت إليه بها، وأسهبت مقرظاً له فيها... فأقرؤها فينغر..." [1] إذ كان الفقر ما زال يطارده، وسوء الحظ يلازمه، فلمَ لا يتصل بأبي الفتح لعله يجد عنده ضالته، فتوسل إليه بتلك الرسالة الطويلة[2]، يشكو فيها له شظف عيشه.

وأغلب الظنّ أنّ سوء طالع أبي حيان، قد رافقه في رحلته إلى أبي الفتح الذي كان رفيقاً به إلى حدٍّ ما؛ لذلك نجد أبا حيان يثني عليه في مواضع متعددة من كتابه "مثالب الوزيرين"[3].

ولم يستقر أبو حيان عند أبي الفتح طويلاً، فقد مُلَّ العيش في تلك المعيشة الضنك، فقرر الرحيل والعودة إلى بغداد، بعد فوت مأموله من "ذي الكفايتين"[4].

ولهذا لم يفته أن يعطيه نصيبه من الثلب والتجريح.

بـ اتصاله بالصاحب بن عبّاد:

دار الزمان دورته، وتغيّرت الوجوه على وزارة الريّ، فقد قتل أبو الفتح بن العميد، وتولى الوزارة بعده "الصاحب بن عباد"[5] الذي نجح في إثارة الأمير "مؤيد الدولة البويهي ضد ابن العميد، وبعد ذلك

---

(١) المصدر السابق ٣٢٧.
(٢) انظر المصدر السابق ٣٢٧ وما بعدها.
(٣) انظر مثلاً ٢٦٧ – ٢٧٠.
(٤) الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ١/ ٣.
(٥) إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، لقب بالصاحب بن عباد، وزير غلب عليه الأدب، فكان من نوادر الدهر علما وفضلاً وتدبيراً، استوزره مؤيد الدولة بن بويه ثم أخوه فخر الدولة، ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه. ولد سنة ٣٢٦هـ وتوفي سنة ٣٨٥هـ، له كتب منها: "المحيط" وديوان شعر. انظر ترجمته في معجم الأدباء ١٦٨/٦ والأعلام ٣١٦/١.

لمع نجمه، وذاع صيته، وطبقت الآفاق شهرته، وجمع حوله الأدباء والشعراء والعلماء، وأذيع عنه أنه يكرم العلماء، ويعمل على نشر العلم والأدب، مما جعل أبا حيان يراوده الأمل مرة أخرى في عقد صلة مع وزير مثل ابن عباد، فلربما غفل عن محاربته الدهر، أو تبسمت له الأيام بعد أن طال عبوسها.

واستؤذن لأبي حيان على الصاحب بالدخول، فرأى رجلاً صوفي السمت، رثّ الهيئة، وفي اللقاء الأول لم تتجاوب النفسيتان، فقد كان الامتحان الذي جبه به "أبو حيان" قاسياً جافاً، ولأدع لأبي حيان التحدث عن نفسه، ليقول: "فأما حديثي معه، فإني حين وصلتُ قال لي: أبو من؟ قلت: أبو حيان؛ قال: بلغني أنك تتأدب؛ قلت: تأدب أهل الزمان، قال: فقل لي أبو حيان ينصرف أو لا؟ قلت: إن قبله مولانا لا ينصرف، فلما سمع هذا تنمَّر، وكأنه لم يعجبه، وأقبل على واحد إلى جانبه فقال له بالفارسية سفها على ما فسَّر لي، ثم قال لي: الزم دارنا، وانسخ لنا هذا الكتاب، فقلت: أنا سامع مطيع"[1].

وهنا أحسّ أبو حيان بفشل مسعاه، فقد تحمل مشقات السفر أملا في عمل يتخلص به من حرفة الشؤم، فإذا بهذه الحرفة في انتظاره. واستهلال أبي حيان مع الصاحب لم يكن يخلو من جفاء، وكثافة ظل في نظر أبي حيان أو هو على الأقل لم يكن بالذي يدخل البهجة على السائل، ويغريه بالاسترسال، فإذا أضفنا ما أسرّه أبو حيان إلى بعض من في الدار مسترسلاً، فنحاه هذا إلى "ابن عباد" – على وجهه أو على غير وجهه – متوقَّع بعده أن يكون بداية لعداء بين الرجلين. ولا شك أن التوحيدي أخطأ حين أباح بما في نفسه لمن في الدار فقد يكون عيناً لابن عبّاد.

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان ٢٠٣.

وأبو حيان أحسَ كذلك بأنّ سوء حظه قد سبقه إلى الرّي، فابن عباد يتجاهل كنيته، علماً بأنه قد سبق له لقاءه، والمبيت عنده ضمن وفد سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة[1]. ثم يسأله عن تأدبه" بما يشعر بالسخرية منه، وقلة شأنه في نظره، ثم يسأله ممتحناً عن "حيان" أتنصرف أم لا؟ هذه المقابلة الجافة جعلت أبا حيّان لا يرتاح لابن عباد.

ومهما يكن من تجهّم الصاحب له من أول لحظة، فلا يستطيع أحد أن يبرئ أبا حيان من أسباب الخلاف والجفوة بينهما، كما أنّه من الظلم لأبي حيان أن يتحمل المسؤولية وحده فيما حدث.

إذنْ، ما هي أسباب إخفاق التوحيدي، وما سبب تجهم الصاحب له عند كل لحظة ولفظة، وفي باب الصاحب عشرات من الكتاب والشعراء أمثال التوحيدي يعيشون في كنفه، وينالون من فيضه، ويستميحون جدواه، فمن تلك الأسباب فيما أرى:

أولاً: مدح التوحيدي لابن العميد عدو الصاحب، وذلك بطلب من الصاحب حتى ليبدو أنّ الصاحب يستدرج التوحيدي للوقوع في الأخطاء كقوله له: "حدثني عن بعض لياليه ببغداد، يعني ذا الكفايتين، وعن مذاكرة الجماعة عنده، ومشاركته لها"[2]. ولا شكّ أن التوحيدي لم يكن موفقاً كل التوفيق حينما تلا تلك الرسالة على مسامع ابن عباد، حتى وإن كان هو الذي أمره بذلك، مما جعل بعض المقربين إلى الصاحب يقولون لأبي حيان: "جنيت على نفسك حين ذكرت عدوه عنده بخير، وبينت عنه، وجعلته سيّد الناس..."[3].

(١) انظر مثالب الوزيرين: ٩٠.
(٢) المصدر السابق: ٣٣٦.
(٣) المصدر السابق: ٣٣٢.

ثانياً: بغض التوحيدي لمهنة الوراقة، ورغبته في العطاء، في حين نجد أنّ الصاحب كلفه بتلك المهنة "مهنة الشؤم"، يقول أبو حيان: "قدم إليّ نجاح الخادم – وكان ينظر في خزانة كتبه – ثلاثين مجلدة من رسائله، وقال: يقول لك مولاي: انسخ هذه، فإنه قد طلب من خراسان..."، إلى أن قال: "وما ذنبي إذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة... أي إنسان ينسخ هذا القدر وهو يرجو أن يمتعه الله ببصره أو ينفعه بيده"[1].

ثالثاً: استطالة التوحيدي على الصاحب واحتقاره له، ومن ذلك ما رواه التوحيدي حين قال: "وقال يوماً في المجلس وهو يتحدث عن رجل أعطاه شيئاً فتلكأ في قبوله: لابدَّ من شيء يعين على الدهر.

ثم قال: قد سألت جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندها ذاك. فقلت: أنا أحفظ ذاك، فنظر بغضب وقال: فما هو؟ قلت: قد نسيته، قال: ما أسرع ذكرك من نسيانك؟ قلت: ذكرته والحال سليمة، فلما حالت عن سلامتها نسيتُ، قال: وما حيلولتها؟ قلت: نظر الصاحب بغضب فوجب في حسن الأدب أن لا يقال ما يثير الغضب. فقال: ومن تكون حتى نغضب لك! دع هذا وهات، قلت: قال الشاعر:

ألامُ على أخذ القليل وإنما ∴ أصانِعُ أقواماً أقلَّ من الذرِّ
فإن أنا لم آخذ قليلاً حُرمتُه ∴ ولابدَّ من شيء يعين على الدهرِ

فسكت"[2].

"وكلما حرص التوحيدي على مسايرة الصاحب، والفوز برضاه، ازداد هذا تنمّراً وتكبراً، فلا يسع التوحيدي إزاء هذا الصدّ القبيح إلا مجابهته بالأجوبة المسكتة"[3]، قال التوحيدي: "حضرت مائدة

(١) المصدر السابق: ٣٢٥ – ٣٢٦.
(٢) مثالب الوزيرين: ٣٠٥.
(٣) أبو حيان التوحيدي، للكيلاني: ٢٤.

الصاحب، فقدمت مضيرة. فأمعنتُ فيها، فقال لي: يا أبا حيان إنها تضرُّ بالمشايخ! فقلت: إن رأى الصاحب أن يدع التطبب على طعامه فعل. فكأني ألقمته حجراً، وخجل واستحيا، ولم ينطق إلى أن فرغنا"[1].

استمرت هذه الحال ثلاث سنوات يقول بعدها أبو حيان: "وكان عقباها أنني فارقت يابه سنة سبعين وثلاثمائة راجعاً إلى مدينة السلام، بغير زاد ولا راحلة، ولم يعطني في مدة ثلاث سنوات درهما واحداً، ولا ما قيمته درهم واحد..." [2].

ويقول: "إنه حرمني فازدريته، وحقرني فأخزيته، والبادي أظلم، والمنتصف أعذر"[3].

فكان "مثالب الوزيرين" أكبر أثر للتوحيدي يسجل فيه حنقه ومصابه الذي ألمَّ به من ابني العميد ومن الصاحب، ولعله كما يقول إحسان عباس: "من أشدّ ما فجره الحنق والسخط المكين في تاريخ الأدب العربي"[4].

ثالثاً: مؤلفاته:

ترك أبو حيان إنتاجاً خصباً وافراً في أكثر نواحي المعرفة التي عرفت آنذاك، وليس بغريب على مثله أن يترك للأجيال مثل هذه الثروة الضخمة النادرة في قيمتها، خاصة وأنه عاش قرابة قرن أو يزيد؛ ولأنه أجاد فنّ التأليف، وقضى عمره في تحصيل المعرفة والتدوين. ولم يكن يحسن شيئاً آخر غير ذلك. فجاءت مؤلفاته

(١) معجم الأدباء ١٥/ ٧.
(٢) مثالب الوزيرين: ٢٠٧.
(٣) المصدر السابق: ٥٩.
(٤) أبو حيان التوحيدي لإحسان عباس، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٦م: ٧١.

غزيرة في كمّها، عميقة في فكرها، فريدة في نسقها، ولولا أنه أحرقها في آخر حياته لكانت الفائدة أعمَّ، ولأفادت الثقافة العربية كثيراً، وقد حالت فعلته دون وصول بعض مؤلفاته إلينا، وخاصة أنَّ بعض كتبه لم تكن مرغوبة، ويخشى الناس اقتناءها، إذا لاحظنا أنَّ النسخ الموجودة الآن من مؤلفاته كتبت عنه في حياته، وخرجت قبل حرقها كما يذكر ذلك "السيوطي" و"طاش كبرى زاده"[1].

ومهما يكن من شيء فإنّ ما تبقى من آثاره ينبئ عن غزارة علمه، ووفرة تأليفه، ولولا خشية الإطالة لأفردت للحديث عن مؤلفاته فصلاً مطولاً ينبئ عن كتبه، وعددها في كتب المعاجم، عند ياقوت مثلاً[2] في "معجم الأدباء"، أو ما ذكره الصفدي في "الوافي بالوفيات" كما ذكر محمد كرد علي أنه أثبت أسماء كتبه في أكثر من أربع صفحات[3]، وكذلك ما بذله "السندوبي" في نشره لكتاب "المقابسات" فقد أعدّ بحثاً بقوائم كتبه، وذلك في المقدمة، وما قام به "مرجليوث" في مقالة عن أبي حيان في "دائرة المعارف الإسلامية"[4] من ذكرٍ لكتبه. وكذلك ما قام به "عبدالرزاق محيي الدين" الذي قدّم كشفاً متميزاً لمؤلفات التوحيدي اعتمد فيه في الظاهر على متابعاته لقوائم الأساتذة السابقين، مع نظرة نقدية في مراجعة عنوانات الكتب

---

(١) انظر: بغية الوعاة للسيوطي، مطبعة عيسى البابي الحلبي: ٢٤٨، وكذلك: مفتاح السعادة لطاش ١/ ١٨٨. و: أبو حيان التوحيدي، للكيلاني: ٣٧. و: أبو حيان التوحيدي لمحمد الشيخ ٢/ ٧٥٥.

(٢) انظر: معجم الأدباء لياقوت ١٥/ ٧ – ٨.

(٣) أمراء البيان لمحمد كرد علي: ٤٥١.

(٤) أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات، للدكتور عبدالأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م: ٧٢، نقلاً عن "دائرة المعارف الإسلامية" لمرجليوث: ٨٢ – ٨٨.

المنسوبة أو التي لم تصح نسبتها إلى التوحيدي[1]. وكذلك الكشف الذي قدمه الدكتور إبراهيم الكيلاني عن آثار التوحيدي[2].

ثم ما تلا ذلك من محاولات قام بها إحسان عباس[3] ثم أحمد الحوفي[4] وزكريا إبراهيم[5]. ثم أبين بعد ذلك ما حصل فيها من خلط أو زيادة ونسبة غير صحيحة، فكما هو معروف فقد خلط كثير من الباحثين بين "أبي حيان التوحيدي" و"أبي حيان الأندلسي النحوي"، حيث نسب أحد الباحثين كتاب "تفسير القرآن الكريم المعروف بـ"البحر المحيط" لأبي حيان التوحيدي، وكذلك "النهر المادّ" وكذلك "التدريب في شرح التقريب" وهو "محمد توفيق حسين" ناشر إحدى نشرتي "المقابسات"، وقد ذكر الزركلي في "الأعلام" أنها لأبي حيان الأندلسي صراحة[6].

ولكنّي سأدع ذلك كلّه اختصاراً، وسأقوم بعرض مختصر لبعض كتبه المتفق عليها، مصنفاً لها حسب أنواع العلوم والمعارف، وهي كالآتي:

أ – الآثار الأدبية:

من آثار أبي حيان الأدبية: "الإمتاع والمؤانسة"، و"الصداقة والصديق"، و"مثالب الوزيرين"، و"الهوامل والشوامل"، و"البصائر والذخائر"[7]،

---

(١) انظر: أبو حيان التوحيدي لعبدالرزاق محيي الدين: ١٨٤ – ٢٥٦.

(٢) انظر: أبو حيان التوحيدي للكيلاني: ٣٧ – ٥١.

(٣) أبو حيان التوحيدي لإحسان عباس (٥١ – ٥٢) و(٧٠ – ٧٣).

(٤) أبو حيان التوحيدي للحوفي ٢٤٢ – ٢٤٧.

(٥) أبو حيان التوحيدي لزكريا إبراهيم ١٠٠ – ١٤٧.

(٦) الأعلام للزركلي ٨/ ٧٦، ترجمة أبي حيان الأندلسي النحوي.

(٧) البصائر والذخائر: وردت كتب منسوبة خطأ لأبي حيان التوحيدي هي نفسها هذا الكتاب، وذلك مثل عنوان "أخبار القدماء، وذخائر=

و"النوادر"،و"تقريظ الجاحظ"،ورسالة"الحنين إلى الأوطان"، ورسالة "في علم الكتابة"،و"الردّ على ابن جنّي في شعر المتنبي".

ب – الآثار الفلسفية:

من آثار أبي حيان الفلسفية: "المقابسات"، و"رسالة في ضلالات الفقهاء في المناظرة"، وذكره ياقوت بعنوان: "رسالة في صلات الفقهاء في المناظرة"[1]، و"المحاضرات والمناظرات"[2]، و"الإقناع"[3] و"التذكرة التوحيدية"[4].

=الحكماء"، ولا قيمة لما تحرف من العنوان عند المتأخرين على "ذخائر الحكماء" وبصائر القدماء وبشائر الحكماء" و"بصائر القدماء وسرائر الحكماء "كما عند حاجي خليفة،= = وقد غلط مرجليوث في تقدير العنوان، كما تحرف عند بروكلمان وغيره. انظر: أبو حيان التوحيدي لعبدالرزاق محيي الدين: ١٨٤ – ١٨٨، و: معجم المؤلفين لكحاله ٧/ ٢٠٥.

(١) معجم الأدباء لياقوت ١٥/ ٨.

(٢)المحاضرات والمناظرات:هذا الكتاب نُسب إلى أبيحيان التوحيدى، وقد ورد عند ياقوت في معجم الأدباء ٨/١٥،وقد تحرّف عنده على "محاضرات العلماء"والافتراض الصحيح هنا،أنه طالما نجد فى الأعم محتويات "الإمتاع والمؤانسة" الذي وصلنا كاملاً، تتفق مع محتويات "المحاضرات والمناظرات"وقد ضاع هذا الأخير الذي اقتبس منه ياقوت "مناظرة بين متى بن يونس وأبي سعيد السيرافي" ونسبها إلى كتاب"المحاضرات"فالافتراض أنهما عنوانان لكتاب واحد بلا أدنى ريب.انظر:أبوحيان التوحيدي في كتاب المقابسات للأعسم: ٨١.

(٣) الإقناع: وهو أيضاً من الكتب التي نسبت إلى أبي حيان بسبب التحريف، فهو تحريف ظاهر وقع فيه حاجي خليفة؛ أفليس المقصود هو "الإمتاع" بعد أن حذف "المؤانسة" التي تستكمل طبيعة العنوان تبعاً لياقوت؟

(٤) التذكرة التوحيدية:يقول عبدالرزاق محيىالدين:وقد ذكرها مرجليوث "في دائرة المعارف الإسلامية" اعتماداً على ما ورد في كتاب "غرر الخصائص" وقد رجعت إلى نص العبارة فلم أستشعر أنّ الكتاب

ج – الآثار الصّوفيّة:

ومن آثاره الصوفية: "الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية" و"الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي" و"الزلفى" وورد عند ياقوت بعنوان "الزلفة"[1]، و"رياض العارفين" و"رسالة في أخبار الصوفية" و"رسالة الحياة" التي طبعها الدكتور الكيلاني ضمن رسائله.

د – آثار متنوعة:

ومن آثاره في الكلام والجدل: "رسالة في بيان ثمرات العلوم"[2] و"رسالة الإمامة" و"المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتّى بن يونس القُنّائي". وهناك من الكتب التي ذكرها ياقوت، وليس لها الآن وجود أو ذكر مثل "الرسالة البغدادية"[3].

وهكذا نجد أنّ كتب أبي حيان كلها أسئلة وأجوبة، وروايات ومساجلات، ومحاضرات، ومحاضر جلسات، وتقريع وتقريظ، ونقد ولمز، ووعظ وإرشاد، "وكل صفحة منها تدل على علوّ كعبه في العلوم، وبلوغه درجة عالية في الفهم، أنزلته منازل أكابر المنشئين

لأبي حيان، والأولى أن ينسب هذا الكتاب إلى صاحب غرر الخصائص انظر: أبو حيان التوحيدي لعبد الرزاق محيي الدين: ٢٥٤. بل إنّ من الباحثين من لم يشرْ إلى الشك فيها، واعتبرها موثوقة النسبة إلى أبي حيان كما صنع الكيلاني في كتابه "أبو حيان التوحيدي": ٤٨. انظر: أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات للأعسم: ٩١.

(١) معجم الأدباء ١٥/ ٧.

(٢) هذه الرسالة لم يذكرها ياقوت، وعدد صفحاتها تسع، وقد طبعت بمطبعة الجوائب، ذيلاً لرسالة "الصداقة والصديق" عام ١٣٠٢هـ. انظر: "أبو حيان التوحيدي" لعبدالرزاق محيي الدين: ٢٥٣.

(٣) معجم الأدباء ١٥/ ٧. وقال عبدالرزاق محيي الدين: ذكرها ياقوت في معجمه، وتبعه على ذلك المؤرخون، ولم أعرف لها نسخة، ولا مصدراً نقل منها نصاً. انظر: أبو حيان التوحيدي لعبدالرزاق محيي الدين: ٢٥٤.

والمؤلفين، صوّر فيها العلم والأدب في أيامه أحسن صورة، وتنكرت النفوس لمشربه، وأنكره كثيرون حسداً ولؤماً، وما مثله بالذي يكون نكرة. ذلك لأنه قال الحق، ولم يزل قائله من الممقوتين كما قال المعرّي"[1].

رابعاً: شخصيته:

لقد صوّر أبو حيان لنا حياته في كتبه التي وصلت إلينا، فوجدنا فيها أنه كان أديباً فقيراً، من رواد القصور، أصيب بالخيبة والخذلان، ثم انتقل بعدُ إلى التصوف، حيث أبانت تلك المرحلة عما بلغه من يأس؛ حتى أحرق كتبه تمرداً على الحياة.

والسبب في عدم قدرته على مخاطبة الوزراء أو البقاء عندهم والنيل منهم، هو تلك النقلة المفاجئة من مجلس الورّاقين في السوق إلى ذوي السلطان مباشرة.

ولهذا يقول الدكتور زكريا إبراهيم: "قد يكون في وسعنا أن نقول إنّ أبا حيان لم يكن شخصاً متكاملاً بكل معاني الكلمة، وحسبنا أن نسترجع أساليبه في التصرف... وليس من شكّ في أنّ الشخص غير المتكامل إنما هو ذلك الذي يستجيب بطريقة جزئية ناقصة، اندفاعية؛ نظراً لعجزه عن التأليف بين دوافعه وتجاربه السابقة من جهة، ومقتضيات الموقف الراهن من جهة أخرى"[2].

ومما يلاحظ في شخصية أبي حيان التناقض العجيب، ومن ذلك أنّه حجّ ماشياً مع المتصوفة، مصاحباً لرافضي الدنيا كردّ فعل واضح لطلبه العلاء في مجالس الوزراء؛ فإنه بذلك يدلل على أنه لم يكن يحارب الطموح في ذاته إلى الدنيا إلاّ بالإعلان عن التمرد.

---

(١) أمراء البيان لمحمد كرد علي: ٤٥١.

(٢) أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء د. زكريا إبراهيم، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة د. ت: ٨٩.

ومن الغرائب في حياته وشخصيته أنه كان يرتاد مجالس الوزراء بلا سبب وجيه بالمظهر الصوفي، وكأنه يريد أن يقول ساخراً من وزراء الدولة: إنّ عبقرياً مثله ليس بحاجة إلى الملبس لكي يظهر بمظهر العظيم؛ فالعظمة عند أبي حيان بما يمتلكه الرجل من العلم. كذلك يلاحظ عليه حبه الدائم لاستجداء المال، فطبعت شخصيته بطابع الاستجداء الذليل، فعاش عمره كله وهو يرى أنّ مشكلته الأولى هي المال الذي كان يعوزه؛ لأنه يرى أنّ الجاه كله لا يكون إلاّ بالمال، وهذا يدل على أنّ أبا حيان كان فعلاً مرائياً في تصوفه المظهري في تلك الأوقات قبل الانتقال إلى التصوف الباطني في أواخر حياته، ولهذا نجده لم يفعل أي شيء يجعله يتجاوز ذلك العوز، وتلك الفاقة غير التّشكّي، فعاش على هامش الحياة، ولم يقدر أن يتجاوز الحواجز إلى صلب الأحداث.

إذن يظهر لنا أن أشياء عدة طبعت شخصيته، وجعلته يعيش ذلك التناقض العجيب، ولعلّ ثقافته وكثرة شيوخه، لهما أبعد الأثر في تلك الشخصية الغريبة، في حين لم نكن نعرف عن حياته الأولى شيئاً ذا بال مما قد يكون فيه التفسير الصحيح لحياته وظروفها.

أ – ثقافته:

يعتبر القرن الرابع الهجري – وهو عصر أبي حيان – العصر الذهبي للعلوم والآداب. فيه نضجت العلوم على اختلاف موضوعاتها، وتمَّ نموها، وظهرت الكتب الوافية في أكثرها ولا سيما في اللغة وعلومها والأدب والفلسفة، ومثلما هو العصر كان أبو حيان موسوعة جامعة لأكثر معارف زمانه فهو كما يقول الحوفي: "عالم واسع المعرفة، متنوع الثقافة، خبير باللغة، والنحو والأدب والكلام والتصوف والفقه والفلسفة، وربما لم يندّ عنه إلاّ الطب، والكيمياء

والرياضة"[1]، ولم يصف غزارة علمه واتساع ثقافته أحد كما وصفه ياقوت حيث يقول: "شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين وإمام البلغاء... فرد الدنيا الذي لا نظير له؛ ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فنٍّ، حَفَظةٌ واسع الدراية والرواية"[2].

من أين لأبي حيان كل هذه المعارف؟ وكيف جمع بين ألوان الثقافة المتباينة وبرع في كل منها، كأنه قصر عمره عليه دون غيره؟

لم يذكر أبو حيان ولا المؤرخون له شيئاً عن كيفية تعلمه مبادئ القراءة والكتابة، وكل ما يعرف عنه يبدأ بعدما أخذ يغشى مجالس العلم طالباً ومناقشاً ومناظراً وسائلاً ومجيباً، ومحدثاً ومؤانساً وناقلاً ومسجلاً، وقد أحسن الخط وأجاد النسخ. وعمل بالوراقة التي خرجت الكثيرين من العلماء والأدباء[3].

وقد تلقى علومه ومعارفه على شيوخ بغداد، وشيوخ البصرة وغيرهم من أعلام عصره، وقد كان نهماً إلى المعرفة، شغوفاً بالعلم، لا يملّ الطلب، ولا يسأم السؤال عن كل ما يعرض له من مسائل العلم المختلفة. وحبّ التنويع ظاهرة لازمة لأبي حيان في أغلب أطوار حياته، ولم يكن له ما يشغله عن طلب العلم وتحصيله.

فلم يعرف عنه أنّه تزوج أو رزق أولاداً، وهكذا "اشتدّ في طلب العلم تشميره، واتصل في اقتباس الحكمة رواحه وبكوره، وكانت

---

(١) أبو حيان التوحيدي للحوفي: ٥٦.
(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٥/ ٧.
(٣) الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي لـ: لطف الله قاري دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع. الرياض، ط١ ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

الكلمة الحسناء أشرف عنده من الجارية العذراء، والمعنى المقوّم أحبّ إليه من المال المكوّم"[1]. كما قد أشرتُ إلى ذلك من قبل.

ولم يكن أبو حيان يفرّق في طلبه للعلم، وبحثه عن المعرفة بين مذهب وآخر، ولا بين عالم وغيره، ولم يهتم بأهل دين بعينه. بل كانت المعرفة ضالته أنى وجدها فهو آخذها، وقد تتلمذ على كثير من العلماء من مختلف الملل والمذاهب،ومختلف الاتجاهات والاهتمامات.

إذا عرفنا ذلك أدركنا السّر الذي جعل من أبي حيان دائرة معارف جيله، وكتاب عصره، "وإنك لو طلبت شخصاً سواه، يجمع ما اختلفت عليه تلك الحركة العلمية الواسعة في القرن الرابع الهجري لعجزت"[2].

بعد هذا كلّه يكون لزاماً عليَّ أن أذكر بعضاً من شيوخه الذين تلقى العلم والمعرفة على أيديهم، والذين كان لهم أثر واضح في حياته وبقيت آثار بصماتهم واضحة في حياته وتفكيره ومؤلفاته، وكان لهم الأثر في تكون ثقافته وتنوعها.

فمن هؤلاء "أبو سعيد السيرافي"العالم النحوي المعروف، وقد روى التوحيدي مناظرة جرت بين أستاذه "أبي سعيد" و"متّى بن يونس" في المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني[3] ونجد التوحيدي يثني عليه كثيراً في كتابه "مثالب الوزيرين"[4]، وقد أخذ عنه علوم النحو والشريعة والكلام والفقه، كما أفاد من أخلاقه، وسلوكه العلمي والعملي في التقشف والتوكل والتصوف، وقد كان

(١) أبو حيان التوحيدي لمحمد الشيخ ١/ ١٧٠، نقلاً عن الهوامل والشوامل: ٧٣.
(٢) أبو حيان التوحيدي لعبدالرزاق محيي الدين: ١٢٣.
(٣) انظر: الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ١/ ١٠٩ – ١٢٨.
(٤) انظر: مثالب الوزيرين الصفحات: ٢٤٦– ٢٦٥، ٢٧١ – ٢٧٣.

اقتناعه به كاملاً؛ ولذلك كانت إفادته منه وثقته بعلمه، واطمئنانه له ولآرائه، وكان فخره بالانتساب إليه واضحاً جلياً.

ومن العلماء الذين تتلمذ عليهم "أبو الحسن علي بن عيسى الرماني المعتزلي" ، الذي كان إماماً في علم العربية والأدب،والفلسفة والكلام روى أبو حيان كثيراً من مقالاته في "الإمتاع والمؤانسة"(١).

ومن شيوخه "أبو حامد المروروزي"وقد أعجب به أبو حيان أشد الإعجاب؛ لغزارة علمه، وتبحره في أصول الشريعة وفروعها، قال عنه: "إنّه بشأن الشريعة أعلم ولأعاجيبها أحفظ، وفيما أشكل منها أفقه"(٢).

أخذ أبو حيان عنه أصول الفقه الشافعي، كما أخذ عنه كثيراً من المعارف وروى له كثيراً في "المثالب"(٣).

ومن شيوخه كذلك "يحيى بن عديّ"المنطقي الفيلسوف،حيث تتلمذ عليه حيناً من الزمن، وقرأ معه الكثير من الكتب اليونانية المترجمة.

ولم تقف تلمذة أبي حيان على من تقدّم ذكرهم من أعلام عصره فحسب، بل درس على كثيرين غير هؤلاء، وقد نبّه إليهم في كتبه، فمنهم: "أبو محمد المقدسي العروضي"(٤)، و"أبو الفتح النوشجاني"(٥)، و"أبو بكر القوسي"(٦)، و"أبو زكريا الصيمري"(٧)، و"أبو الحسن

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/ ١٣٣.
(٢) مقدمة المقابسات للسندوبي: ٩، وانظر: المقابسات لأبي حيان:٣٩.
(٣) انظر مثالب الوزيرين: الصفحات: (١٣٧ – ١٤٠)، (١٥١ – ١٥٢)، (١٩١ – ١٩٢)، (٣١٣ – ٣١٤) وغيرها.
(٤) المقابسات: ١٠١، ١٣٤ – ١٣٥.
(٥) المصدر السابق: ١٢٣، ٣٥٩.
(٦) المصدر السابق: ٩٩، ٢٤٣.
(٧) المصدر السابق: ٦١، ٢٣٣، وانظر الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ٢/ ٨٤.

العامري" الفيلسوف[1]، كما أخذ عن المرزباني محمد بن عمران[2]، وغيرهم كثير من أساتذة زمانه.

ناهيك عن العلماء السابقين "كالجاحظ" و"ابن المقفع" و"ابن قتيبة" وغيرهم، فقد تتلمذ عليهم من خلال كتبهم، يقرؤها ويتمثلها في أسلوبه وبيانه.

ولم تقف تلمذة التوحيدي عند سنّ معينة، بل ظلّ أكثر عمره طالباً للمعرفة، يرد مجالس العلماء، ويحرص على المشاركة فيها.

وهكذا يتأكد لنا أنّ أبا حيان ليست شخصية واحدة، بل هي شخصيات تجمعت في شخصية، فصبغ صبغة غريبة، صنعت منه فيلسوفاً وأديباً، وصوفياً وظريفاً ومتشائماً في آن واحد، وهذا نعرفه من تلك المشارب المتنوعة التي عبَّ منها حتى الثمالة، فارتوى وأروى.

ب – عقيدته:

لم يكفّ أعداء التوحيدي عن محاربته والكيد له، ولم يكفهم محاربته في رزقه، وفي صرف الناس عنه وعن كتبه، وطمس ذكراه في مماته. فأشاعوا عنه التهم الخطيرة، بل وصل الأمر بهم إلى تشويه معتقده، والطعن فيه. فتعقبوا كلامه يؤولونه، فاتهموه بالتحلل والزندقة دون سند قوي، إلاّ ما أطلقه بعض من لا خلاق لهم، من استنتاجات غير دقيقة، يشوبها التقليد والمحاكاة.

ولا بدّ من تتبع تهمة الزندقة التي اتهم بها، حتى نتبين مصدرها، وهل هي صادقة أم لا، وما الهدف من وراء ترويجها وإشاعتها؟

---

(١) الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ١/ ٣٦، ٢/ ٨٤، ٣/ ٩٤ – ٩٥.

(٢) المصدر السابق ١/ ٤١.

*** مصدر الاتّهام:**

أولاً: ربما كانت بداية الاتهام هو نقلٌ عن "ابن فارس" (أبو الحسين) . فقد ذكر "السبكي" نقلاً عن "الذهبي" عن "أبي الفرج بن الجوزي" أنه قال: قال – ابن فارس – في كتاب "الفريدة والخريدة": "كان أبو حيان كذّابا، قليل الدين والورع عن القذف... ولقد وقف سيدنا "الصاحب" "كافي الكفاة" على بعض ما كان يدخله ويخفيه من سوء الاعتقاد، فطلبه ليقتله، فهرب والتجأ إلى أعدائه، ونفق عليهم بزخرفه وإفكه، ثم عثروا منه على قبيح دخيلته، وسوء عقيدته، وما يبطنه من الإلحاد، ويضيفه إلى السلف الصالح من القبائح، فطلبه الوزير "المهلبي" – فاستتر ومات في الاستتار وأراح الله منه..."[1].

ثانياً: ما أورده "ابن الجوزي" حيث جعل التوحيدي أشدَّ كفراً من "المعري" وقرنه بابن "الراوندي" فيقول: "نقلت من خط "أبي الوفاء بن عقيل" أنه قال: "من العجائب أنّ المعري أظهر من الكفر البارد الذي لا يبلغ مبلغ شبهات الملحدين" إلى أن قال: "وهذا ابن الراوندي وأبو حيان – ما فيهم إلاّ من انكشف في كلامه سقم في دينه. يكثر الحمد والتقديس ويدس في ذلك المحن"[2].

ثالثاً: جاء في طبقات الشافعية[3]: "قال الذهبي: "كان أبو حيان عدواً لله خبيثاً سيئ الاعتقاد".

ثم أورد بعد ذلك ما ورد في "الفريدة والخريدة" كاملاً دون نقصان[4].

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٢، وانظر: أبو حيان التوحيدي للحوفي: ١٦٧ – ١٦٨، و: أبو حيان التوحيدي لعبدالرزاق: ٥٦.

(٢) أبو حيان التوحيدي لعبدالرزاق محيي الدين: ٥٧ – ٥٨. نقلاً عن المنتظم لابن الجوزي ٨/ ١٨٥، طبعة حيدر أباد ١٣٥٨هـ.

(٣) انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٢.

(٤) انظر:ميزان الاعتدال للذهبي ٤/ ٥١٨ – ٥١٩.

رابعاً: قال مرجليوث: "تفاه المهلبي عام ٣٥٢هـ من بغداد – وكان يتعيش فيها من العمل نساخاً – لزندقته في آرائه التي أوردها في مصنفات له فقدت الآن..."[١].

✷ مناقشة هذه الأقوال:

أولاً: قبل كل شيء يجب ملاحظة أنّ جميع المؤرخين الذين نقلوا النص المنسوب إلى ابن فارس من كتابه المسمى "الفريدة و الخريدة" إنما نقلوه عن ابن الجوزي دون سواه، ومعنى هذا أن ابن الجوزي هو المصدر الوحيد لاتهام أبي حيان بالزندقة، وهو لم يكن مُوافقاً على ما يتفرد به، قال عنه "ياقوت": "وأنا لا أعتمد على ما تفرّد به ابن الجوزي؛ لأنه عندي كثير التخليط"[٢].

ثانياً: جاء في النص المنسوب لابن فارس: أنّ الوزير المهلبي طلب أبا حيان ليقتله؛ فإذا كان ذلك صحيحاً – وهو مستحيل – فأين كان قلمُ أبي حيان الجبار، ولسانه السليط، من المهلبي؟ لقد تحدث أبو حيان عنه في كثير من المناسبات، دون أن يشعرنا بأي عداء بينهما، بل مدحه في أماكن كثيرة[٣].

وجاء في النص كذلك أن ابن عباد طلبه ليقتله، ولكنَّ أبا حيان لا يستر شيئاً مثل هذا.

ثالثاً: يقول الدكتور عبدالرزاق محيي الدين: "إننا لم نعثر على مؤلف بهذا الاسم: "الفريدة والخريدة" منسوباً إلى "ابن فارس" وقد ذكرت للرجل جملة مؤلفات، في مواطن الترجمة له[٤]، وفي فهارس

---

(١) أبو حيان التوحيدي لمحمد الشيخ ٢/ ٤١٣، نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول: ٤٥٩ – ٤٦٠.

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٧/ ١٣.

(٣) انظر: الإمتاع والمؤانسة لـ حيدي ٣/ ٢١٣.

(٤) انظر مثلاً:معجم الأدباء لياقوت ٤/ ٨٤.

المؤلفات العربية أمثال: "بروكلمان" و"كشف الظنون" وكتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع" ومعجم المؤلفين" وليس بين ما ذكر منها كتاب بذلك الاسم[١].

رابعاً: ابن فارس من معاصري أبي حيان، ومن المستبعد – وهو العالم اللغوي – أن يقع في أخطاء تاريخية فادحة، وردت في النص منها: أنّ النصّ يقرر أنّ الصاحب طلب التوحيدي ليقتله ففرّ منه، وبعد ذلك تعقبه الوزير المهلبي، فاستتر منه حتى مات. ومن المعروف أنّ أبا حيان غادر ابن عباد سنة ٣٧٠هـ – كما صرح أبو حيان بذلك[٢]. والوزير المهلبي توفي سنة ٣٥٢هـ بإجماع المؤرخين[٣]، أي أنّ أبا حيان ترك الصاحب بعد وفاة المهلبي بثمانية عشر عاماً. فمن أين طلبه المهلبي ليقتله؟.

خامساً: لا بدّ من التعرف على طبيعة العلاقة بين الرجلين – أبي حيان وابن فارس – وما الذي دعا ابن فارس لاتهام أبي حيان، إذا أخذنا بشق كلامه وهو ما يتعلق بزندقته فحسب.

لقد ثلب أبو حيان ابن عباد وابني العميد، وكان ابنُ فارس أستاذاً للصاحب، وصديقاً له بعد أن ولي الوزارة، وألّف له "الصاحبي"، فيقول الحوفي: "فمن المرجّح أنّ ابن فارس أراد أن يشوّه سمعته، ويثأر منه، فألصق به تهمة الزندقة، وأراد أن ينسب إلى ابن عباد الغيرة على الدين، فزعم أنّه همّ بقتل أبي حيان؛ ولكنه هرب منه"[٤].

سادساً: سأل الوزير "ابن سعدان" أبا حيان عن "ابن فارس"، فذمّه أبو حيان، بقوله: "إنه شيخ فيه محاسن ومساوئ، إلاّ أنّ الرجحان

---

(١) أبو حيان التوحيدي لعبدالرزاق محيي الدين: ٦٠ بتصرف.
(٢) انظر: مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٣٢٥.
(٣) انظر: تجارب الأمم لمسكويه ٦/ ١٩٧، و: الحضارة الإسلامية لمتز ١/ ١٧٧.
(٤) أبو حيان التوحيدي للحوفي: ١٧١.

لما يذمّ به لا لما يحمد عليه"[1] وبالرجوع إلى النصّ يتبين أنّ الذي يعنيه أبو حيان بهذا الذمّ يُسمى "أبو الفتح ابن فارس". ويبدو أنه شخص آخر غير ابن فارس اللغوي الذي نسب إليه الطعن في عقيدة أبي حيان؛ لأنّ ابن فارس اللغوي ورد ذكره على لسان أبي حيان كثيراً دون أن يتعرض له بما يسيء إليه[2]. ولعل هذا يدلّ على أنّ العلاقة بينهما لم تصل إلى الحدّ الذي يجعل ابن فارس هذا يطعن أبا حيان في عقيدته. وإلاّ فما كان أبو حيان ليترك فرصة للحديث عن ابن فارس دون أن ينال منه، ويؤكد من ناحية أخرى الشك في نسبة الطعن في عقيدة أبي حيان إلى ابن فارس اللغوي إذ كنيته "أبو الحسين" وليست أبا الفتح الذي سأله عنه ابن سعدان.

وليس من المستبعد -كما يقول الحوفي – "أن يكون خصوم أبي حيان هم الذين فعلوا ذلك، ولكنهم أسندوه لابن فارس؛ ليزيدوه قبولاً، وتثبيتاً في نفوس سامعيه"[3].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد نصوصاً تشهد له بصحة العقيدة، وسلامة الدين، فياقوت يقول عنه: "صوفي السمت والهيئة، متعبدّ والناس على ثقة من دينه"[4]. وقد دافع عنه السبكي بقوله: "لم يثبت عندي إلى الآن من حال أبي حيان ما يوجب الوقيعة فيه، وقد وقفت على كثير من كلامه فلم أجد فيه إلاّ ما يدل على أنّ كان قوي النفس مزدرياً لأهل العصر..." [5].

(١) الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ٣/ ٢٠٥.
(٢) انظر مثالب الوزيرين الصفحات: ٢١٢، ٢٢٨، ٢٧٣. وغيرها.
(٣) أبو حيان التوحيدي للحوفي: ١٧٢.
(٤) معجم الأدباء لياقوت ١٥/ ٥.
(٥) طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٢ – ٣.

وقد دافع عنه كثير من المحدَثين مثل "محمد كرد علي" في "أمراء البيان"[1]، والحوفي في حديثه عنه[2]، وكذلك عبدالرزاق محيي الدين حيث يقول: "وكان أبو حيان، حنيفاً مسلماً، ما ندَّ عن شيء من أصول الإسلام العامة"[3].

وإنّ في كتبه خير شاهد لنا على صحة عقيدته، ومن يتصفح كتابي "الإمتاع والمؤانسة" و"مثالب الوزيرين" يجد فيهما ما ينقض دعاوى خصومه نقضاً لا يبقي ولا يذر، وسأذكر ثلاثة شواهد فقط، من هذين الكتابين.

ورد في الإمتاع والمؤانسة قوله: "الدين لم يأت بكَم وكيف في كل باب، ولهذا كان لأصحاب الحديث وأنصار الأثر مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر... ولم يأت الجدل بخيرٍ قطّ. وقد قيل: من طلب الدين بالكلام ألحد، ومن تتبع غرائب الحديث كذب"[4]. فنجده هنا راسخ الإيمان، ثابت القصيدة، بعيداً عن الشك، يؤمن بأنّ ما جاء به الدين ليس كله صالحاً للعرض على العقل.

وجاء في "مثالب الوزيرين" أمثلة كثيرة تدل على عمق إيمانه، وأنه برئ من كل ما اتهم به، فنراه يقول عن الدين: "الدين والخلق والعلم. بهنّ يعتدل الحال، وينتهي إلى الكمال... لأن الدين جماع المراشد والمصالح..."[5]، وكثيراً ما يعرض للحديث عن الصحابة، فيتحدث عنهم بأدب جمّ، وعقيدة صافية، يقول مثلاً: "ألا ترى أنَ التقرب إلى الله بعداوة أبي جهل وذمه ولعنه، وذكر لؤمه وخساسته

(١) انظر: أمراء البيان لمحمد كرد علي: ٤٨٧ – ٤٨٩.
(٢) أبو حيان التوحيدي للحوفي: ١٦٧ – ١٧٧.
(٣) أبو حيان التوحيدي لعبدالرزاق محيي الدين: ٧١.
(٤) الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ١/ ٢٤٢.
(٥) مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٢١.

كالتقرب إلى الله بولاية أبي بكر ومدحه والترحّم عليه، وذكر فضله وبلائه ونصرته"[1].

هذه أمثلة ذكرتها، ولولا خشية الإطالة – وقد حصلت – لأوردت نماذج متنوعة في فروع العقيدة، ولجعلت صورته واضحة لا لبس فيها؛ حتى نرى أنَّ ما وجه إليه من تهم ما هو إلا جهل أو تقليد أو حقد دفين، وصل ببعضهم إلى أن جعله من إخوان الصفا[2]، وذلك بنقلٍ لنصوص وتحويرها للتدليل على القضية بغير يقين، وبعضٌ آخر تهالك عليه حتى صيّره وجودياً[3]، وكل ذلك تخمين لا يعتمد على يقين أو دليل، ومسألة كهذه يحتاج الإنسان للحكم فيها إلى التثبت؛ لأنها من أخصّ خصائص الإنسان.

ج ـ تشاؤمه:

كانت شخصية أبي حيان التوحيدي أميل إلى التشاؤم منها إلى التفاؤل، وذلك نتيجة لما قاساه من الحرمان، وكابده من مرارة الغربة، وذلّ الفقر، وما عاناه من الإخفاق المتكرر في كل مساعيه، ولم يكن في الأصل صاحب مزاج سوداوي يغلب عليه الحزن والانقباض كما يرى ذلك الكيلاني[4]، و"إنما كان محباً للحياة، مقبلاً عليها، مخالطاً للناس ميالاً إلى صحبتهم[5]، ولكن كان لخيبة أمله وتعاسة حظه، ورجوعه بخفي حنين من عند الوزراء أكبر الأثر في شقائه ونظرته لمجتمعه من حوله، فإننا نحسُّ بأن التوحيدي كان أسير ظروفه وبيئته المحيطة به، التي قدّست المادة وعملت على

(١) المصدر السابق: ٥٤.
(٢) انظر: أمراء البيان لمحمد كرد علي: ١٧٤.
(٣) أبو حيان التوحيدي لمحمد الشيخ ٢/ ٦٢٨، والرأي لعبدالرحمن بدوي في مقدمة "الإشارات الإلهية" للتوحيدي: ك.
(٤) انظر: أبو حيان التوحيدي للدكتور إبراهيم الكيلاني: ٢٨.
(٥) انظر: أبو حيان التوحيدي لزكريا إبراهيم: ٢٢٤.

جعلها المقياس الوحيد للوجاهة والمنزلة الرفيعة. وكان التوحيدي مع ما حصل له عند كبار القوم يرى نفسه أديباً بارعاً، وكاتباً بليغاً، فهو إذن جدير بالسعادة، قمين بنعم الحياة، فكيف لا يشكو صرف الزمان حين يفقد ذلك النعيم في حين أنه يرى حوله كثيراً ممن لم يعرفوا العلم ينعمون بالحياة، ويتلذذون بها.

ولعلّ من أسباب تشاؤمه – إن لم يكن هو السبب المباشر – حبّه النّهم للحياة، فقد كان حريصاً كل الحرص على أن يتمتع بحياة هانئة سعيدة، ولكنه حيل بينه وبين ما يشتهي من حياة، وعجز عن تحقيق ما يتمناه، وكان شعوره بالعجز مُدمِّراً، فاحتدم الصراع في نفسه حتى أوجد عنده عقدة الشعور بالنقص، يقول: "والله ربّما صليت في الجامع، فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، وإن اتفق فبقّال... ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصُنانه، وأسكرني بنتنه"[1].

ولذا نجده يفكر في الانتحار ولكنه يمنعه عنه إيمانه وعقيدته، كما ذكر ذلك هو بنفسه[2]، وما إحراق مؤلفاته إلاّ دليل على تلك النفس التي تأصلت فيها تلك العقدة، فجعلتها تتبرم بالحياة من حولها، وترى أنّ هذه الحياة إن لم تعطك فلا تعطها شيئاً، وهذا كان بسبب ما لاقاه من حرمان في حياته كلها[3].

ومن أسباب تشاؤمه عجزه عن التكيّف مع مجتمعه، فحينما قال إنه لم يجد حوله ولداً نجيباً، أو صديقاً مؤنساً، وحين قال إنه اضطر إلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، إنما كان يعبر عن ظواهر

---

(١) الصداقة والصديق للتوحيدي: ٨.

(٢) انظر: أبو حيان التوحيدي لمحمد الشيخ ٢/ ٥١١، نقلاً عن "المقابسات" للتوحيدي: ٢١٩.

(٣) انظر: حرق الكتب في التراث العربي، لناصر الخزيمي، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م: ١٠٦-١٠٧.

مأساته، ولكن السبب الذي يكمن وراء هذا الإحساس هو "شعوره بالعجز عن تحقيق أي ضرب من ضروب التواصل مع الناس، وإحساسه بالوحدة حتى في صميم حياته الاجتماعية، وفشله في التغلب على وساوس الوحشة، والتفرد والاغتراب"[1].

وكذلك من الأسباب عداؤه للخاصة والعلماء، والعامة البسطاء، وسبّه لعصره بكل ما فيه، حتى إننا نجده يقول: "بارتْ البضائع، وغارت البدائع، وكسد سوق العلم، وخمد ذكر الكرم، وصار الناس عبيد الدرهم بعد الدرهم"[2].

وكذلك لا ننسى ما لاقاه من حسد الحاسدين، ووشاية الواشين، مما كان له الأثر الكبير في نفوس العامة والخاصة، وابتعادهم عنه، ونفرتهم منه، كل ذلك يجعله يقول في آخر حياته، عبارة موجزة، رائعة لاذعة في وقت واحدة هي: "أصبحت آسفاً على أمسي، كارهاً ليومي، متهماً لغدي"[3]، هذه إشارات عابرة لما ألمَّ بأبي حيان في حياته مما كان سبباً في تعاسته وتشاؤمه.

د ـ فكاهته:

ومع هذا التشاؤم الذي ألمحنا إليه كان أبو حيان فكهاً وذا ظرف ودعابة، ولعل السبب في ذلك هو أنّ قوة تشاؤمه، وشدة بؤسه ونكده، جعلته يفرّ إلى عالم النكتة، وهذا هو المخرج الوحيد لمثله "وقد يكون في الضحك ضربٌ من المرارة التي تكشف عما في الطبيعة البشرية من خبثٍ وشرّ، وسوء نيّة"[4].

---

(١) أبو حيان التوحيدي لزكريا إبراهيم: ٢٢٥ – ٢٢٦.
(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٥/: ١٦.
(٣) أبو حيان التوحيدي، لمحمد الشيخ ٢/ ٥٢٧، نقلاً عن البصائر والذخائر لأبي حيان المجلد الثالث: ٤٧١.
(٤) سيكولوجية الفكاهة والضحك، لزكريا إبراهيم: ٢٢٤.

ولم يهتم التوحيدي بإيراد النوادر، وتصوير النقائص فقط، وإنما اهتمّ إلى جانب ذلك بالبحث عن أسباب الضحك، وتحليل ملابساته، كسؤاله لأستاذه "أبي سليمان السجستاني" عن الضحك وما هيته، وتسجيله لجواب شيخه[1].

ولكننا إذا عدنا إلى نكت أبي حيان وفكاهته نجدها من نوع آخر، نجدها "مطبوعة بطابع الفتور، فلا تبعث على الضحك كما تبعث ملح الجاحظ"[2] والسرّ في ذلك هو أنّه يصوغ هذه النكت، وتلك الفكاهات بنفسية مريرة، ومزاج متعكّر صفوه؛ من جراء حياته القاسية.

وإذا أردنا أن نتلمس أنواع الفكاهة عند التوحيدي نجدها خير معيار لشخصيته فكما يقول أحدُ الباحثين: "قل لي مما تضحك، أقل لك من أنت. فليس عجيباً أن يكون ضحك أبي حيان معياراً لشخصيته، أو أن تكون مفاكهته أصدق تعبير عن نفسيته"[3].

وبما أنّ أبا حيان لم يتزوج أو يتسرّ – لفقره – نجده يكثر من النوادر التي تدور حول النساء والأطفال، وكأنما يجد في هذا النوع من الفكاهة تعويضاً نفسياً عن بقائه عزباً بلا نسل، ويؤخذ عليه أنه يورد نوادره أحياناً بألفحش لفظ وأمجن عبارة. ونجد في فكاهاته الشعور بالامتياز، وإحساسه بالتفوق، فنجده يكثر من النكات التي تكشف عن ذكاء صاحبها، والتي تدور حول التلاعب بالألفاظ، والأجوبة المسكتة، وتدل على حسن تخلّص، وحضور بديهة، فمن هذا النوع ما رواه أبو حيان من أنّ "أعرابياً وقف على قوم يسألهم. فقال لأحدهم: ما اسمك؟ قال مانع، وقال للآخر: ما اسمك؟ قال:

(١) المقابسات للتوحيدي: ٢٧٤. وانظر: أبو حيان للشيخ ٢/ ٥٣٨.
(٢) أبو حيان التوحيدي للحوفي: ٤١٩.
(٣) أبو حيان التوحيدي لزكريا إبراهيم: ٢٥٠ – ٢٥١.

محرز. وقال للآخر: ما اسمك؟ قال: حافظ. قال: قبّحكم الله، ما أظنّ الأقفال إلاّ من أسمائكم"[1].

ونجد عنده النكت التي تنحو منحًى لغوياً، ومن ذلك إجابته لابن عباد حين سأله: "أبوحيان ينصرف أو لا ينصرف؟ فيقول: إن قبله مولانا لا ينصرف"، مما أعقب ابن عباد عليه غضباً، وسبَّ التوحيدي بالفارسية على إثر تلك النادرة.

وكذلك نجد التوحيدي لا ينسى عالم الأطفال في هذا المجال، فيروي مُلحاً تصور حياة الطفولة، وما فيها من مغالطة، فمن ذلك ما رواه عن "عيسى بن زيد المراكبي" قال: "كان لي غلام من أكسل خلق الله، فوجّهته يوماً ليشتري عنباً وتيناً، فأبطأ ثم جاء بعنب وحده، فقلت له: أبطأت ثم جئت بإحدى الحاجتين، فأوجعته ضرباً وقلت له: ينبغي إذا استقضيت حاجة أن تقضي حاجتين لا إذا أمرتك بحاجتين أن تجيء بحاجة، ثم لم ألبث بعدها أن مرضت، وقلت له امض فجئني بطبيب وعجّل، فمضى وجاءني بطبيب ومعه رجل آخر، فقلت له هذا الطبيب أعرفه، فمن هذا؟ قال: أعوذ بالله منك، ألم تضربني بالأمس على مثل هذا؟ قد قضيت لك حاجتين وأنت استخدمتني في حاجة، جئتك بطبيب ينظر إليك، فإن رجّاك وإلاّ حفر هذا قبرك. فهذا طبيب وهذا حفّار، إيش أنكرت؟..."[2].

فالتوحيدي هنا يسخر من قسوة بعض الناس في شخص هذا الرجل ويشير إلى مغالطة الطفل – دون أن يدري – في القياس، فجاء برسول الموت مع حامل الدواء.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ٢/ ٥٧. وانظر: أبو حيان التوحيدي لمحمد الشيخ ٢/ ٥٤٥.

(٢) البصائر والذخائر للتوحيدي. المجلد الأول: ٨٧ – ٨٨.

وكان التوحيدي يستخدم الفكاهة كسلاح من أسلحته في محاربة خصومه في الرأي، ويجد في ذلك فرصة للتندر بهم، ولا يغيب عن التوحيدي تصوير البخلاء والطفيليين، والتندر بهم، ومن ذلك قوله: "كان المحسّن الضبّي شرهاً على الطعام، وكان دميماً، فقال له زياد ذات يوم: كم عيالك؟ فقال: تسع بنات... قال: فأين هنّ منك؟ فقال: أنا أحسن منهنّ، وهنّ آكل مني، فضحك زياد وأمر له بجائزة"(١).

ولم يترك التوحيدي أحداً يسلم من فكاهاته اللاذعة، سواء في ذلك العلماء والوزراء، والفقراء والبخلاء والحمّالون وغيرهم، وقد أورد في "الإمتاع والمؤانسة"(٢) ما يقرب من تسعين صفحة، في ثلاث ليال من لياليه مع ابن سعدان، أحاديث عن الشبع والجوع، والبخل والشراهة، وكل ما يتصل بالطعام يجدُّ فيها حيناً، ويهزل أحياناً.

وأخيراً:

بعد هذا يتضح لنا ذلك التناقض والازدواج في شخصية الرجل، مما يدلنا على أن شخصية أبي حيان كانت في صميمها شخصية متناقضة، تحيا على الصراع والتوتر، والتمزق الداخلي. وآية ذلك أنّ أبا حيان الذي يقول: إنّ الدنيا حلوة خضرة، هو أبو حيان الذي ينادي بالزهد والقناعة، ويدعو إلى التصوف والتنسك! وأبو حيان الذي يلتمس عطاء الوزراء، ويترامى على أبواب الكبراء هو أبو حيان الذي يقول: إنّ حبّ السلامة غالبٌ عليه.

وأبو حيان الذي يستسلم لليأس، وينادي بالتشاؤم، ويرفع عقيرته بالتمرد والسخط والشكاة، هو أبو حيان الذي ينطلق في عالم الفكاهة، ويضحك ملء شدقيه، ويضحكنا معه.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ٣/ ٨١ بتصرف.
(٢) المصدر السابق: من أول الجزء الثالث – ٨٥.

فهل من عجب بعد ذلك أن يكون أبو حيان – كما وصفه ياقوت وغيره – فيلسوفاً ومتكلماً، وأديباً وعالماً، فقيهاً ومتصوفاً، نحوياً ومنطقياً، فناناً ومفكراً؟ الجواب: لا عجب.

خامساً: وفاة أبي حيّان:

اختلف المؤرخون والدارسون في زمن وفاة أبي حيان كما اختلفوا في مولده، وليس الخلاف هنا بالخلاف الهيّن، وإنما هو خلاف جسيم، يرجع بوفاته إلى سنة ٣٦٠هـ[١] أو يمتد بها إلى سنة ٤١٤هـ فأي خلاف ذلك الذي يفصل بين زمنيه أكثر من نصف قرن[٢].

فهناك من يقول: إنه توفي سنة ٤١٤هـ، ويتفق مع هذه الرواية ما ذكره المؤرخ الشيرازي زركوب في كتابه "شيرازنامة" من أنّ الشيخ "أبا الحسن بن أحمد شيخ مشايخ عصره، رأي أبا حيّان في منامه فسأله: "ما فعل الله بك...؟ فقال: غفر لي على رغمك، وفي اليوم التالي طلب من أصحابه أن يحملوه إلى شيراز، فزار قبر أبي حيان وصلى عليه، وأمر بوضع لوح على قبره مكتوب عليه: هذا قبر أبي حيان التوحيدي توفي سنة ٤١٤هـ"[٣].

إذن فليس بصحيح أنه توفي سنة ٣٦٠هـ؛ لأنّ الرسالة التي كتبها أبوحيان إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد، والتي اعتذر فيها عن إحراق كتبه قد كتبها في رمضان سنة ٤٠٠هـ[٤]، ويتضح من هذا أنّ أبا حيان حتى سنة ٤٠٠هـ كان ما يزال حياً يمارس

---

(١) انظر: أبو حيان التوحيدي لعبدالرزاق محيي الدين: ١١، نقلاً عن "روضات الجنات".
(٢) انظر: أبو حيان التوحيدي، للحوفي: ٤٧.
(٣) أبو حيان التوحيدي، للكيلاني: ٣٥، وانظر الحوفي: ٤٩.
(٤) انظر: المقابسات لأبي حيان: ١١٤.

نشاطه الفكري على أحسن ما يكون، يضاف إلى هذا أنّ "أبا إسحاق الشيرازي"، قد ذهب إلى شيراز طلباً للعلم سنة ٤١٠هـ وسمع دروس أبي حيان. ثم عاد إلى بغداد سنة ٤١٤هـ[١].

وكذلك فليس بصحيح ما ذكره "آدم متز" من أنّ أبا حيان توفي سنة ٤٠٠هـ[٢] ولا ما ذكره "الأعسم" من أنه توفي سنة ٤٠١هـ، اعتماداً على تأريخ الرسالة بسنة ٤٠٠هـ وأنه كان في عشر التسعين، فخمّن الأعسم بأن التوحيدي لم يلبث بعد رمضان إلاّ ثلاثة أشهر أو أربعة ثم توفي عام ٤٠١هـ، وأنّ هذه السنة كانت قابلة للتحريف عند النّساخ بسنة ٤١٤هـ[٣].

وهكذا فإننا نكون مطمئنّين نوعاً ما إلى التاريخ الذي يقول إنّ وفاته كانت عام ٤١٤هـ لاعتماده على آراء للمؤرخين أكثر، وأدلة أقوى، ومراجع أوثق، وهكذا فقد حُرم التوحيدي حتى من تأريخ سنة وفاته، حقاً لقد أصابته حرفة الأدب.

(١) انظر: أبو حيان التوحيدي، للكيلاني: ٣٥.
(٢) انظر: الحضارة الإسلامية لآدم متز ١/ ٤٤٧.
(٣) انظر: أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات، للأعسم: ٥٨.

الفصل الثاني
دراسة الكتاب وتحليله

أولاً: الدراسة الموضوعية:

١ـ اسم الكتاب:

ورد اسمه مختلفاً في بعض المصادر، فهو مثالب أو ثلب الوزيرين أو ذمّ الوزيرين، ولأحياناً "كتاب الوزيرين"، وقد يسمى "كتاب الهفوات لابن الصابي" كما يُسمى أحياناً "أخلاق الوزيرين" وهذه الأسماء كلها من وضع المتأخرين عن أبي حيان، وقد كان التوحيدي يسميه "الرسالة" ووردت هذه التسمية في عدة مواضع، وورد عنوانها في المخطوط "رسالة أبي حيان التوحيدي في أخلاق ابن العميد والصاحب بن عباد"[١]، ويرى الدكتور الحوفي أن المقصود بابن العميد هو أبوالفتح الابن لا أبو الفضل[٢]، وكذلك الدكتور عبدالرزاق محيي الدين[٣] وكان ذلك بناء على استنتاجات من الفقرات التي اقتبسها ياقوت من "مثالب الوزيرين"، ولكن بعد نشر الكتاب تبين أنّ أبا حيان ثلب أبا الفضل ابن العميد وهو المقصود أولاً، كما ثلب ابنه أبا الفتح، وسبب اللبس هو أنّ أبا حيان يطلق "ابن العميد" على الأب والابن، دون تمييزه في كثير من المواضع.

وقد نشر الدكتور إبراهيم الكيلاني "مثالب الوزيرين" بدمشق سنة ١٩٦١م وهي رسالة في أربعمائة صفحة، وقد وصفها أبو حيان لابن سعدان بقوله: "على أني عملت رسالة في أخلاق الصاحب وأخلاق ابن العميد، أودعتها نفسي الغزير ولفظي الطويل والقصير، وهي في

---

(١) مثالب الوزيرين للتوحيدي بتحقيق الكيلاني "المقدمة": ي.

(٢) انظر: أبو حيان التوحيدي للحوفي: ٧٦ – ٨٦.

(٣) انظر: أبو حيان التوحيدي لعبدالرزاق محيي الدين: ١٩١ – ١٩٦.

المسودة، ولا جسارة لي على تحريرها... وهي تجزّع في دست كاغد قرعوني، فقال أجد تحريرها، وعليَّ بها ولك الضمان ألاّ يراها إنسان"[1].

وقد ورد أكثر من مرة تسمية الكتاب "بالرسالة" ويفهم من هذا أن "مثالب الوزيرين" إنما هي تسمية المتأخرين، ويفهم منه أيضاً أنّ أبا حيان أضاف للكتاب فيما بعد نصوصاً جديدة، حتى وصل إلى هذا الحجم الذي هو عليه الآن.

٢ـ موضوعه:

إنّ هذا الكتاب يُعدُّ من كتب السِّير الغيريّة في الأدب العربي؛ وذلك لأنّ موضوع الكتاب هو الحديث عن مثالب ابني العميد والصاحب بن عباد، وهو السبب المباشر في تأليف الكتاب، وذلك كما يقول أبو حيان مخاطباً ابن سعدان: "وهذه الجملة – أكرمك الله – أنت أحوجتني إليها... تطالبني في جميعه بنسخ أشياء من حديث ابن عباد وابن العميد وغيرهما ممن أدركته في عصري"[2].

ولما كان أبو حيان قد بالغ في ثلب الوزيرين، فقد وضع في اعتباره احتمال التصدي له؛ لذلك نجده يلجأ لأقوال غيره، فجعلها مصادره التي اعتمد عليها ليؤيد وجهة نظره، ولكي يؤكد ما كتبه لابن سعدان يقول له: "وزعمت أني قد خبرت هذين الرجلين من غمار الباقين، ووقفت على شأنهما، واستبنت دخائلهما... ولعمري لقد كان أكثر ذلك إما بالمشاهدة والصحبة، وإما بالسماع والرواية..."[3].

---

(١) الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ١/ ٦١.
(٢) مثالب الوزيرين لأبي حيان: ٧.
(٣) المصدر السابق: ١٠.

والكتاب وإن كان غرضه الأول هو هجاء الوزيرين إلاّ أنّه يلقي ضوءاً على جوانب هامة ومثيرة للحياة الأدبية والفكرية والاجتماعية في القرن الرابع الهجري، كما أنّه يطلعنا على خفايا العلاقات الشخصية، ومظاهر العداوات التي اشتدّ أوارها بين المشتغلين بصناعة الأدب في زمن بني بويه"[1]، وفي الكتاب "أشياء لطيفة من أحاديث وتعليقات وطرائف أدبية وفلسفية ولغوية وشعرية تجعل منه تحفة أدبية وفنية في الأدب العربي"[2]، وقد وصف المستشرق "آدم متز" هذا الكتاب بأنّه "أروع آيات النثر العربي ومن أحسن ما كتب في تصوير شخصيات الناس في القرن الرابع الهجري"[3]، فقد مثّل التوحيدي بمن هجاهم مثله أتت على كل ما قيل فيهم من مدح.

ومع كلّ ما في هذا الكتاب من تجريح فإنه ما يزال يحمل صورة ساخرة تحليلية للشخصية التي تحتمي وراء المنصب السامي والأعطيات، صورة لا نظفر بها دائماً في الأدب؛ لأننا قلّ أن نجد واحداً كتب سيرة إنسان يبغضه، ولهذا فهي عند الناس جميعاً صورة متهمة، وصاحبها يُرمى بالتحيّز والتزيد والغلو.

٣- زمن تأليفه:

لقد كان أبوحيان يدوّن مواقفه الحرجة، ولعلّ تلك الساعات التي وقفها مكسور النفس أمام الأمراء والوزراء تارة يُفتح له، وأخرى يصدّ الباب دونه، تقول لعلّها من أحرج ما مرّ عليه من أوقات، فألّف في ذلك رسائل صغيرة (بطاقات) ولكن السؤال هو: متى جمع تلك البطاقات؟ وجعلها مؤلفاً نطالعه ونقرؤه؟

---

(١) (٢) أبو حيان التوحيدي للدكتور إبراهيم الكيلاني: ٤٣.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، لآدم متز، ترجمة عبدالهادي أبي ريدة: ١/ ١٨١.

تذكر المصادر أنّه اتصل بأبي الفضل بن العميد، ثم بأبي الفتح "ذي الكفايتين"،وكان نصيبه الفشل في كل هذه الصلات كما سبق، وقد عاد من عند الصاحب آخر سنة ٣٧٠هـ[١]،وبعد عودته أخذ في تأليف كتابه، أو نسخ ما قد دونه من قبل، ولكن دون ترتيب أو تنسيق.

والناظر في كتاب "مثالب الوزيرين" يجد التواريخ التي عرف فيها أبو حيان ابني العميد وابن عباد[٢]، وأشار أبو حيان إلى السنة التي بدأ يكتب فيها تلك الجذاذات عن الوزيرين، فيقول مخاطباً ابن سعدان: "وهذه الجملة... أكرمك الله – أنت أحوجتني إليها... تطالبني في جميعه بنسخ أشياء من حديث ابن عباد وابن العميد وغيرهما، ممن أدركته في عصري من هؤلاء، منذ سنة خمسين وثلاثمائة إلى هذه الغاية"[٣].

ففي الكتاب أحداث ترجع إلى سنة ٣٥٠هـ، ولكنه بدأ في تأليفه سنة ٣٧٠هـ وفي هذا الظرف كانت تجزّع في دست كاغد فرعوني، ولكنها زادات حجماً بعد هذا التاريخ، إذ قد اشتمل المأثور منها على نقد لأبيات نظمها الصاحب ابن عباد عام ٣٧٨هـ[٤] حينما أهدى إليه "فخر الدولة" ديناراً من ضربه زنته ألف دينار..." [٥].

٤ـ سبب تأليفه:

إنّ الناظر في سيرة "أبي حيان"، وخاصة في الفترة التي قضاها طالباً القرب من الوزيرين ليدرك بوضوح أنّ أبا حيان عانى فيها أشدّ

---

(١) انظر: مثالب الوزيرين لأبي حيان: ٢٠٧، ٢٢٥. والإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ١/ ٣.

(٢) انظر:مثالب الوزيرين الصفحات: ٧، ٢٧١، ٣٢٥. وغيرها.

(٣) المصدر السابق: ٧.

(٤) معجم الأدباء لياقوت ٦/ ٢٦٦.

(٥) أبو حيان التوحيدي لعبدالرزاق محيي الدين: ١٩١، وكذلك: أبو حيان التوحيدي لإحسان عباس: ٧٠.

المعاناة، وقاسى ألم الذلّ والهوان، فقد ترك "بغداد" والأمل يبرق أمام ناظريه، متجهاً إلى "الريّ" – كما قدّمت – علّه ينال حظوة، أو يفوز بصلة. ولكن لم يتحقق ما كان يؤمله، بل ازدادت تعاسته جحيماً، فعاد إلى بغداد، ولكن ما هي إلاّ فترة يسيرة استردّ فيها هدوءه، إذا به يسمع بالصاحب بن عباد، وحبه لأهل الأدب، فأمل في ذلك آمالا عراضا، وحثّ الخطى إليه، ولكن – كما قدمت أيضاً – خيّب الصاحب أمله. وأساء معاملته؛ فتحطمت نفسيته، وأحس بأنه قد أهين في كرامته، فبدأ يعاني مأساته، فصوّر لقاءه بالصاحب حيث يقول: "... ولكني ابتليت به، وكذلك هو ابتلي بي، ورماني عن قوسه مُعرقاً، فأفرغت ما كان عندي على رأسه مغيظاً، وحرمني فازدريته، وحقرني فأخزيته، وخصّني بالخيبة التي نالت مني، فخصصته بالغيبة التي أحرقته، والبادئ أظلم، والمنتصف أعذر... ولئن كان منعني ماله الذي لم يبق له، فما حظر عليّ عرضه الذي بقي بعده، ولئن كنت انصرفت عنه "بخفي حنين"، لقد لصق به من لساني وقلمي كل عار وشنار وشين، ولئن لم يرني أهلاً لنائله وبرّه، إني لأراه أهلاً لقول الحق فيه، ونثّ ما كان اشتمل عليه من مخازيه"[1]، وهكذا نرى أنّه أبان عن سبب تأليفه لهذا الكتاب، بأنه كان بسبب ما لقيه وواجهه من احتقار الصاحب له، وتكبره عليه، ولقد أعاد أبو حيان هذا التعليل في كتابه كثيراً[2].

ومما ساعد التوحيدي على نشر الكتاب وجمعه حقد ابن سعدان ومقته للصاحب، "حيث كان –ابن سعدان– يتطلع دائماً أحوال ابن عباد الخاصة والعامة، فشجع أبا حيان على الخوض في أمر الصاحب، وعلى إنجاز كتاب "مثالب الوزيرين"[3].

(١) مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٥٩ – ٦٠.
(٢) انظر: المصدر السابق: ٢٠٧.مثلاً.
(٣) مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٧، ٢٤. وانظر: أبو حيان التوحيدي، لإحسان عباس: ١٠١ بتصرف.

وهكذا يتضح لنا أن ما كتبه: أبو حيان إنما هو بتأثير ما عاناه في صحبة الوزراء، وهذا وحده سبب لعله يكون كافياً لتأليفه، ولإخراج ما في نفسه من غصص، صورها هذا الكتاب، وضمّنها إياه؛ ولهذا عُدَّ من أروع ما كتب في النثر العربي.

٥ـ صورة الوزيرين في الكتاب:

أ ـ أبو الفضل بن العميد:

من الأشياء التي تلفت النظر في كتاب "مثالب الوزيرين" أنّ أبا حيان يورد الكثير من آرائه في تصوير الشخصيات، سواء أكانت مدحاً أو ذمًّا على لسان غيره، من الشخصيات المعروفة، وغالباً من التي يكون لها وزنها؛ مما جعل كتاباته تكاد تكون حواراً متصلاً والذي حدا بأبي حيان إلى استخدام هذه الطريقة هو أنّه أراد أن يؤيد آراءه من ناحية، وليكون هؤلاء بمثابة الشهود على ما يقوله؛ وليكون أمامه باباً للتخلص إذا ما تعرّض للمساءلة والمؤاخذة من ناحية أخرى، وليبرر مسلكه أمام الأجيال في كشفه وهجائه لأناس شُهد لهم بالفضل والتقدم.

وأبو حيان في كتابه هذا خصّ الوزيرين "أبا الفضل بن العميد والصاحب بن عباد" بالجزء الأعظم منه، ولكنه فاوت في القدر لكل منهما فلقد كان الجزء الأكبر من الهجاء من نصيب ابن عباد، أما أبو الفضل فما لحقَه إلاّ القليل، وكذلك ابنه أبو الفتح الذي ناله شيء يسير من لسان أبي حيان؛ ولعل السبب في ذلك هو أنّ أبا حيان مكث عند الصاحب مدة أطول من المدة التي قضاها عند ابني العميد وذاق على يديه أضعاف ما ذاقه على يدي ابني العميد وسأبدأ بالحديث عن ابن العميد "أبي الفضل" وكيف صوّره أبو حيان في مثالبه؟

لم يترك التوحيدي وصمة عار إلاّ وألصقها بأبي الفضل، فها هو يصف ادعاءه للفضل، وإدراكه لسائر العلوم، يقول عنه –على لسان

ابن فارس-: "فأمّا ابن العميد أبو الفضل فإنّه كان ثأياً آخر، وطامة أخرى، وكان فضله من جنس ليس لابن عباد فيه نصيب، ونقصه من ضرب لم يكن له فيه ضريب، كان يظهر علماً تحته سفه، ويدّعي علماً هو به جاهل، ويرى أنّه شجاع وهو أجبن من المنزوف ضرطاً، وكان يدّعي المنطق وهو لا يفي بشيء منه، ولم يقرأ حرفاً على أحد، ويتشيّع بالهندسة وهو منها بعيد، ولم يكن معه من صناعة الكتابة الأصل وهو الحساب، ... ولقد بقي ما بقي من أيامه، فما قعد يوما في الديوان ناظراً في عمل، أو فاصلاً في حكم... وكان قد وضع في نفس صاحبه بالحيل الدقيقة، والأسباب الخافية أنّه واحد الدنيا، وأنّه لسان الزمان، وخطيب الدهر..." [1]. وهكذا يستمرّ أبو حيان في استلاب كل العلوم والمعارف من "ابن العميد" بقلمه حتى يجرده منها واحدة تلو الأخرى.

ثم يحدث عن حسد "ابن العميد" للموهوبين، بقوله: "وكان... شديد الحسد لمن نطق ببيان، أو أفصح بالعربية"[2]، ثم يقول: "وسيبين بعض هذا بما أذكره لك بشاهد عجل، وراوٍ ثقة"[3]، وحقاً فقد أورد التوحيدي ما يؤيد رأيه، فيقول متحدثاً بصورة فيها تهكم وسخرية بابن العميد: "ورد "أبو طالب الجراحي" الكاتب بالريّ من العراق، ولم يكن في عصره أنطق منه لساناً وقلماً، وهو من بيت "علي بن عيسى الوزير"، فعرض نفسه عليه، فلما رأى بسطته ولسانه وخطّه وطلاقته ولطافته، وليونته وصناعته، حَسَدَ واغتاظ منه، وضاقت الدنيا به وعمل على أن يُسمّهُ، ففطن أبو طالب، وكان فطناً، فطوى الأرض... وصار إلى ملك الديلم... فعرفَ قدره، وبسط

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ٢١٢ – ٢١٣.
(٢) المصدر السابق: ٢١٣.
(٣) المصدر السابق: ٢١٣.

يده، وأعلى كعبه... ثم انظر إلى ما جرَّ أبو طالب عليه لخسته ولؤمه ونقصه وسقوطه.. وقد كان يمكنه اصطناعه وتقديمه... ولكنه حسده وأبعده..." (١).

ويستمر أبو حيان في حملته الانتقامية، فيتهم أبا الفضل بارتكاب الفاحشة مع خادمه منصور "ومنصور هذا خادم رأيته، كان من أقبح الناس وجهاً، كثير الهذر، سيّئ الأدب، وكان من "قُمّ" من الأحرار، ولما ذمه صاحبه، ووليّ نعمته بسبب هذا الخادم للشهرة الفاضحة، والتهتك الشائع، قال أبو الفضل بحكمته: ما أصنع؟ والله ما وجدت في هذه المدة..... ولا بدّ لي منه، فليلُم من شاء، والهوى لا يحلو إلاّ مع العذل" (٢).

إنّ موضع علامة الحذف التي مرّت اعتراف من ابن العميد باللواط مع الخادم منصور، ولا ندري كيف استطاع أبو حيان أن يورد هذه المثلبة، وينسبها إلى الخليلي؟، وكيف استطاع أن يستسيغها؟ ولا أظنّ ابن العميد وصل إلى هذه الدرجة، وإنما هذا من وضع أبي حيان للحط من صورته وقدره.

كذلك وصف التوحيدي في مواطن كثيرة بُخلَ ابن العميد وشحَّه، فهو يروي عن أحد خواصه أنّ شاعراً قصده ولزمه لزوم الظلّ، فلم ينل منه شيئاً، فلجأ الشاعر إلى صاحب لابن العميد يدعى "روبين" وسأله الكلام في أمره، فقال "روبين" لابن العميد: "هذا الشاعر البائس قد سمعت منه شعره، وأسمنت أمله، وهو على ذلك يغدو ويروح، ويشكو وينوح، فلو أمرت له بشيء كان أقطع لشغبه، وأجلب لشكره، وأدعى إلى السلامة من عتبه. ويردّ ابن العميد في برود قائلاً: "وما يريد؟ إن شاء أجبته عن قصيدته في رويها بعدد أبياته وعروضه،

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ٢١٣ – ٢١٤.
(٢) المصدر السابق: ٢١٧.

وأعيان معانيه وأزيد، وإذا رددتُ شعراً بشعرٍ، فليس عليَّ بعد ذلك لوم،ولا أنا مقصِّرٌ ولا ظالمٌ!!قال: فقلت له:هذا سمج شنيع، والناس لا يقارون عليه ولا يرضون به ولو ذهبت أرواحهم، وتلفت أنفسهم"[1].

ولا يملّ أبوحيان من الاستهزاء بأبي الفضل، ووصفه بالغدر، وقلّة المروءة، وفساد العقل، فيروي أنه استضاف رجلاً أكولاً كان يكتسح كل ما يقدّم له، ويطلب الزيادة، ثم ضاق به ابن العميد فتآمر عليه مع طباخه فقتله "وهذا الفعل يجمع إلى النذالة قلة الدين، وإلى اللؤم سخف العقل"[2].

أما عقيدة ابن العميد – في نظره – فهي فاسدة، وهو سيئ الظنّ بالله، يقول عنه: "رأيت السجدي يقول "لجريح المُقَل": كيف وجدت هذا الرجل – يعني أبا الفضل – فقال: يابس العود، ذميم المعهود، سيئ الظنّ بالمعبود، ومثله لا يمجّد ولا يسود"[3].

وأخيراً نراه يشك في نسبه ويطعن فيه، فلم يترك التوحيدي لأبي الفضل شيئاً دونما مسّ، حتى نسبه الذي قال عنه: "وحدثني أبو الغادر الصوفي قال: كنت عند العميد ببخارى، وقد جرى ذكر ابنه أبي الفضل فقال: كنت أشكُّ في ولادته قبل هذا، والآن فقد تحقق عندي ما كان يريبني منه، فإنّ الإناء رشاح بما فيه"[4].

ولا أنس في هذا المقام أن أذكر صورة أبي الفتح بن العميد في "المثالب" فقد خصّه أبو حيان بنصيب، حتى لقد التبس على كثير من الباحثين أيهما المقصود بالذكر في تسمية الكتاب "الوزيرين" قبل تحقيقه أهو الأب أم الابن.

---

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ٢١٩ – ٢٢٠. وكذلك: ٢٤٠.

(٢) المصدر السابق: ٢٣٠ – ٢٣١.

(٣) المصدر السابق: ٢٥٢.

(٤) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ٢٣٥.

بخراء، يا عفلاء، يا فقماء! على هذا إلى أن تباعد، فبقيت العجوز مبهوتة، وقالت: مسكين هذا الرجل قد جُنّ..." [1].

والطامة التي دارت على الصاحب دائرتها هي اتهام التوحيدي له بقلّة الدين وسوء العقيدة في غير موضع من مثالبه، فيقول عنه: "وكان مع هذا المذهب الذي يدلّ به، ويسمّيه العدل والتوحيد، قليل التوجه إلى القبلة، قليل الركوع والسجود، وكان مع حفظه الغزير عليه مؤونة في تلاوة آية من كتاب الله عز وجلّ إذا أراد أن يستدلّ بها في المناظرة والجدل... ولم يكن عليه طابع العبادة، ولاسيماء المتألهين" [2].

ويسخر التوحيدي من مذهب الصاحب في القرآن، وزعمه بأنّه مخلوق، فيقول: "حدثني العماني قال: قال قوم من أهل أصفهان لابن عباد: لو كان القرآن مخلوقا لجاز أن يموت، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنّا نصلي التراويح في رمضان؟ فقال: لو مات القرآن في آخر شعبان كان رمضان أيضاً يموت، ونقول: لا حياة بعدك، ولا نصلّي التراويح ونستريح!" [3] وهكذا يسخر من مذهبه، ويدلل على رقاعته في جوابه للقوم.

ومما ثلبه به تصنّعه للسجع، وتكلّفه له، حتى صار مذهباً له، وفي ذلك يقول التوحيدي: "قلت للمسيني: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذاك أنّه لو رأى سجعة تنحلُّ بها عروة الملك، ويضطرب بها حبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل، وكلفة صعبة لسارع إليها، وقال علي بن القاسم الكاتب: السجع لهذا الرجل بمنزلة العصا للأعمى، والأعمى إذا فقد عصاه فقد أقعد، وهذا

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ١٩٥ – ١٩٦.
(٢) المصدر السابق: ٨٢.
(٣) المصدر السابق: ١٧٦.

إذا ترك السجع فقد أفحم"[1]. ودلّل التوحيدي بأقوال كثيرة لابن عباد منها: "قوله يوماً: حدثني أبو علي بن باش، وكان من سادة النـاش. جعل السين شيناً..."[2]، وأورد في الصاحب قول القائل يذم سجعه:

متلقّب كافي الكفاة وإنما ∴ هو في الحقيقة كافرُ الكفار
السجعُ سجعُ مهوّسٍ والخطُّ خطُّ م منقرسٍ، والعقلُ عقل حمارِ[3]

ولا يتركه بل يأتي على آخر شيء للصاحب وهو شعره، فيصف شعر الصاحب بقوله: "وكان ابن عباد يطالب "الأقطع" بأن يحفظ قصائده في أهل البيت وينشدها الناس على مذهب النَّوح، وكان يعطيه على كل بيت درهماً، وإذا لم يُحكم ضربه لكل بيت بعصا عجراء، فكان الأقطع المسكين كل يوم يُضرب فقلت له: من كلّفك الصبر على هذا الضرب، احفظ كما كنت تحفظ، واربح الدراهم، وتخلّص من الألم. فقال: والله لو ضربني بكل عصا في الأرض كان أخفّ عليَّ من حفظ شعره الغثّ، وإنشاد قافيته الباردة، والله! وإنّ شعره في أهل البيت خرا! فهذا قوله"[4].

هذا بعض ما أوردته من هذا الكتاب مما قيل في الصاحب، وما تركته كان أكثر وأشنع، وهو يشفّ عن عاطفة توحيدية ملؤها الحقد والحنق على الصاحب. وحقاً لقد أخزاه وأذلّه كما اعترف هو بنفسه في أول حديثنا عن الصاحب. وكأن القارئ لما أورده التوحيدي في كتابه يعيش تلك اللحظات التي تلظّى أبو حيان فيها بجحيم الحرمان، وسوء المآل.

والتوحيدي لم يحرم الوزيرين من بعض حقوقهما، حيث نراه يثني عليهما قليلاً، ولكنه ما أن يبدأ مادحاً حتى يتذكر موقفهما معه

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ٨٨.
(٢) المصدر السابق: ٢١٨.
(٣) المصدر السابق: ٢٤٥.
(٤) المصدر السابق: ١٢٩.

فيلوي العنان ماسخاً كلَّ ذلك الثناء، فيقول في مدحهما: "وابن عباد – حفظك الله – ليس بصغير القدر، وابن العميد لم يكن خامل الذكر، وما فيهما إلاّ من هو غرّة زمانه، وتاريخ دهره..." (١).

وأخيراً وكما يقول الدكتور زكريا إبراهيم: "وسواء أكان التوحيدي محقاً في هذه الأحكام التي أطلقها على الوزيرين، أم متجنياً عليهما، فإنّ المهم عندنا أنّ أبا حيان قد وجد فيهما أنموذجاً لأولئك المثقفين الذين درسوا علوم الأوائل، وعرفوا كلام فلاسفة اليونان في الفضائل والرذائل، ولكنهم بقوا مع ذلك سادرين في غيّهم، منقادين إلى شهواتهم، عاجزين عن التوفيق بين علمهم وعملهم" (٢).

٦ـ آراؤه النّقديّة في الكتاب:

لم يكن أبو حيان مجرد راوية، أو مجرد محلل اجتماعي وسياسي فقط، لا، بل كان إلى جانب ذلك ناقداً خبيراً بالقضايا النقدية التي كانت مثارة في عصره، ولم يكن عنها بمعزل. وإنما كانت له مشاركات بنّاءة، وآراء انفرد بها. فحافظ على البلاغة العربية في ثوبها القشيب، وحمى الأدب من تلك الأيدي العابثة التي أفسدته بالصنعة. وآراؤه هذه مبثوثة في كتبه الكثيرة، ومنها كتاب "مثالب الوزيرين" الذي لم يخل من نظرات نقدية فاحصة، واتجاه نقدي قوي له أثره ومدلولاته في تلك الفترة.

ومن القضايا الأدبية التي كانت مثارة في ذلك الوقت، ومن قبله بقليل، قضية اللفظ والمعنى"، ولهذا نجد التوحيدي يدلي فيها بدلوه، فهو يرى أنَّ الكتابة الفنية هي ثمرة لاتحاد المبنى والمعنى، وامتزاج الصورة بالمادة، وتكافؤ الشكل مع الموضوع، بشرط أن تتوافر لها

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ٣١٤.
(٢) أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، للدكتور زكريا إبراهيم: ٢٤٠.

وحدة فنية، تجعل لها طابعها الخاص الذي يشهد به التعبير نفسه، فيقول: "مما ينبغي أن لا تغفله ولا تذهب عنه، وتطالب نفسك بالتيقظ فيه أن تجمع له باب اللفظ والمعنى في الصدق والكذب، فإنك إن حرّفت في هذا بعض التحريف، وجزّفت بعض التجزيف، خرج معناك من أن يكون فخماً نبيلاً، ولفظك من أن يكون حلواً مقبولاً؛ لأن الأحوال كلها في صلاحها وفسادها موضوعة دون اللفظ المونق، والتأليف المعجب، والنظم المتلائم، وما أكثر ما رُدّ صالح معناه لفاسد لفظه، وقبل فاسد معناه لصالح لفظه"(١).

ويؤكد أبو حيان أهمية الطبع والموهبة بجانب الصناعة وقواعدها، كما يحبّذ إقامة توازن دقيق بين التفكير والعاطفة، أو العقل والمنطق من جانب، والسليقة الأدبية، والطبيعة الفنية من جانب آخر، وهو يوجز ذلك حيث يقول: "الكلام لا يؤاتيك إلاّ قسراً، ولا يطيعك كارها، تكلّمْ على سجيّة النفس، وعفو الطباع، واطرح البقية جانباً، وجانب التكلّف، واتبع المعنى يتبعك اللفظ، والحظ العقل فإنه نورك، والزم الجادة فهي مسلكك،... وكسِّر لهاتك بتصاريف الكلام مُشقِّقاً لا متشدقاً تبلغ إرادتك"(٢).

وأبو حيان من الكتاب القدامى الذين تفهّموا العلاقة ما بين اللفظ والمعنى، وأدركوا الرابطة مابين اللغة والفكر، فنجده يتحدث عن تقارب المعاني في الألفاظ المتقاربة، يقول عن شيخه اللغوي السيرافي: "الحِلم مشارك لمعنى الحُلم؛ فصاحب الحِلم هو الذي يعرض عما يرى ويسمع كالحالم، واللفظ إذا وافى اللفظ، كان معناه قريباً من معناه.." (٣).

(١) مثالب الوزيرين: ١١.
(٢) المصدر السابق: ٢٥٨.
(٣) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ٢٠٤.

وإذا كان التوحيدي من أنصار العربية وعلومها في المفهوم الشامل، فإنه ينتصر للنثر العربي على وجه الخصوص، وهو الناثر المتفنن المجيد، فنراه يصرّح بأنّ النثر هو الميدان الحقيقي للمدح، وأنّه لا مقام للشعر عنده بجانب النثر، فلذا نجده يقول وهو ينفي أن يكون لابن العميد وللصاحب بن عباد مادح من الكتّاب، ويزري بالشعر الذي قيل في مدحهما: "ودع الشعر جانباً فإنما ذاك عن حسب دنيء، ومذهب زريّ، وطمع خسيس، ومقام مذلّ وموقف مخجل، ولكن هات رسالة محررة، وأديباً فاضلاً. وعالماً مذكوراً تجرّد لنصرتهما، ودلّ على خفّي فضلهما، أو عجب من جليّ فعلهما، فإذا كنت لا تجد ذاك فدع الكلب ينبح، فإنما الكلب نبّاح..." (١).

وهو مع تفضيله للنثر، كان يرى أنّ الشعر إذا كان سلاحاً في يد من يحسن استخدامه، فإنه من أفضل الأسلحة، وأما إذا غدا في يد المرتزقة يمدحون ليحصلوا على العطاء، ويذموا إذا منعوه، فإنّه حينئذٍ نباح. ولهذا نجده لا يقف مكتوف الأيدي أمام من حملوا على الشعراء، بدعوى أنهم ليسوا علماء ولا حكماء، وإنما هم بشرٌ ناقصون "يقولون ما يقولون والجشع باد منهم، والطمع غالب عليهم، وعلى قدر الرهبة والرغبة يكون صوابهم وخطؤهم... ولهذا قيل لا تصحبنّ شاعراً، فإنه يهجوك مجاناً، ويطري بثمن؛ وهذا لأنه مع الريح أين مالت به مال"(٢) فالتوحيدي يعارض هذا الرأي، فيقول إن الرسول ﷺ كان يقول: "إنّ من الشعر لحكماً... وأن الشعر كلام، وإن كان من قبيل النظم... والانتثار والانتظام صورتان للكلام في السمع، كما أنّ الحق والباطل صورتان للمعنى... وليس الصواب مقصوراً على النثر دون النظم، ولا الحق مقبولاً بالنظم دون النثر، وما رأينا

(١) المصدر السابق: ٣٦١.
(٢) المصدر السابق: ٥ – ٦.

أحداً أغفى على باطل النظم، واعترض على حق النثر؛ لأن النثر لا ينتقص من الحق شيئاً..." (١).

ومع ولع التوحيدي بالإيقاع والتنغيم في كتاباته، نجد أنّ حسّه اللغوي الدقيق، كان يمجّ السجع الذي يتعسف فيه صاحبه الإيقاع والتنغيم، بتعسف الألفاظ(٢). كيف لا، وهو حامل لواء الدفاع عن مذهب الترسل في القرن الرابع، وكان السجع قد أخذ في الطغيان على الكتابة الأدبية، ولهذا نجد التوحيدي يسلّط قلمه على "الصاحب" في سخرية مريرة، حيث يورد أن توبيح الصاحب "لفيروزان" المجوسي الذي استخدم فيه السجع المتكلف، يقول التوحيدي راوياً توبيخ الصاحب بقوله: "إنما أنت مخشّ مجس محشّ، لا تهش ولا تبتش ولا تمتش". وتبلغ به السخرية مداها حينما يورد إجابة الفيروزان وهي: "إيها الصاحب! برئت من النار إن كنت أدري ما تقول، إن كان من رأيك أن تشتمني فقل ما شئت بعد أن أعلم فإنّ العرض لك، والنفس فداؤك، لستُ من الزّنج ولا من البربر، ولا من الغزّ، كلمنا بما نعقل على العادة التي عليها العمل، والله ما هذا من لغة آبائك الفرس، ولا لغة أهل دينك من هذا السواد،... وإني أظنّ أنك لو دعوت الله بهذا الكلام لما أجابك، ولو سألته لما أعطاك، ولو استغفرت الله به ما غفر لك، وحقيق على الله ذلك"(٣).

ولكن السؤال الذي ينبغي أن تكون إجابته واضحة هو: ما نظرة التوحيدي للسجع، وهل هو عنده مرفوض؟، أم أنّ له رأياً آخر، لنستمع إليه يقول: "السجع الذي يلهج به هو مما يقع في الكلام، ولكن ينبغي أن يكون كالطراز في الثوب، والصنعة في الرداء،

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ٦ – ٧.
(٢) انظر: أبو حيان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم، د. محمود إبراهيم: ٨٤.
(٣) مثالب الوزيرين لأبي حيان: ٧٤.

والملح في الطعام، والخال في الوجه، ولو كان الوجه كلّه خالاً لكان مقلياً..." [1]. ويقول الدكتور زكريا إبراهيم: "وإذا كان الجانب الأكبر من "فلسفة الفن" عند أبي حيان قد دار حول "فنّ البلاغة" فذلك لأنه قد وجد في هذا الفنّ الذي نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين أشرف الفنون جميعاً؛ فضلاً عن أنّه – بحكم اشتغاله بحماية هذا الفن – كان أقدر على وصفه وتحليله من كل ما عداه من الفنون"[2].

٧ـ موضوعات مُتفرِّقة:

أبوحيان من الكتاب الموسوعيين الذين لا يكتفون بعلم واحد، وإنما – وكما مرّ في بيان ثقافته – يجمعون علوماً وأصنافا من الفنون عديدة؛ ولذا نجد كتابه – مثالب الوزيرين – لا يخصّ الوزيرين فقط، وإنما في الكتاب موضوعات فرعية متفرقة إلى جانب الموضوع الأصلي وهو ثلب الوزيرين والحديث عنهما.

فنجد له مثلاً آراء في القرآن الكريم وإعجازه، ومن ذلك قوله: "ذاك كلام ليس فيه أثر للصنعة، ولا علامة للتكلف، وهو كلام منسكب انسكاباً، وجارٍ جرياً، يزيد لطفه على الطبع بقدر ما يزيد الطبع على التصنّع، قليله كثير، وكثيره غزير... وبعضه أغرب من كلّه، وكلّه أعجب من بعضه، وهو شيء يستوي فيه تعجب الجاهل وتخيّر العالم... وهذا يصحّ ويبين لمن كان ذا أداة تامة، وعقل ثابت وعلم غزير..." [3]، ويستمر في حديثه عن القرآن وإعجازه، ويرى أنّ الإعجاز متحقق في كثير الكلام (القرآن) وقليله، ويرى كذلك أنّ الإعجاز يظلّ مطروحاً على الأجيال، تتوارد عليه جيلاً بعد جيل.

---

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان: ٩٤.
(٢) أبو حيان التوحيدي، د. زكريا إبراهيم: ٢٩٥.
(٣) مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٩٧، وانظر: ٩١.

وفي الكتاب تفسير لبعض آيات القرآن، وذلك في معرض سؤال قُدّم للصاحب، فلم يعرف الجواب، وحاول فأخطأ، فأجاب عن تلك الآية وفسرها "ابنُ المراغي" تفسيراً موفقاً[١].

وفي الكتاب وصف لمجالس العلم والمناظرات، فمن ذلك قوله: "ولقد رأيت "أبا عبدالله البصري" في مجلس عز الدولة، سنة ستين في شهر رمضان. والجماعة هنا "أبو حامد المروروذي"، وأبو بكر الرازي و..." [٢] وذكر كل الحاضرين في الإيوان الفسيح، والمجلس المرتّب، وبدأ بذكر تلك المناظرة، وأنشأ يحدثنا عن الذي دار فيها من أسئلة وردود ومحاورات.

والكتاب مليء بكثير من التعريفات والحدود لبعض العلوم والأخلاق، ونرى أنّ أبا حيان قد كان مغرماً بها، وربما كان ذلك لملازمة أبي حامد، وتلمذته عليه. ومن ذلك قوله عن أبي حامد: "فلما انتهى قال له أبو الحسن الطبري: ارسم لنا كلاماً خفيفاً في الدليل والحجة والبرهان والبيان، والقياس، والعلة والحكم والاسم، والفعل، والحرف، والنصّ، والظاهر والباطن،..." إلى أن يقول: "فاندفع فقال: الدليل ما سلكك إلى المطلوب، والحجة من وثقك من نفسه، والبرهان ما أحدث اليقين..." [٣] وهكذا يسوق الكثير منها، وغيرها في الكتاب كثير[٤].

وقد مرّ معنا أنّ أبا حيان فَقِهَ العربية، وسبر أغوارها، فلا يفوته ألاّ يترك القارئ بين لحظة وأخرى دون لفتة نحوية، أو فائدة لغوية، يظهر فيها براعته، وقدرته اللغوية، كيف لا، وشيخه "السيرافي"

(١) المصدر السابق: ١٦٧ – ١٦٨.
(٢) المصدر السابق: ١٣٧ – ١٤٠.
(٣) المصدر السابق: ١٥١ – ١٥٢.
(٤) المصدر السابق: ١٦٩.

شارح كتاب سيبويه. ومن ذلك قوله: "وقال يوماً – أي الصاحب – فَعْل وأفعال قليل. وزعم أصحابنا النحويون أنه ما جاء إلاّ زيدٌ وأزياد، وفرخ وأفراخ، وفرد وأفراد. قلت: أنا أحفظ ثلاثين حرفاً كلها فعل وأفعال. قال: هات يا مدّعي! فسردت الحروف، ودللت على مواضعها من الكتب. ثم قلت: ليس للنحوي أن يجزم مثل هذا الحكم إلاّ بعد التبحّر والسماع الواسع، وليس للتقليد وجه إذا كانت الرواية شائعة، والقياس مطرداً..." (١)، وهكذا يمضي التوحيدي في إظهار براعته النحوية التي فَضَل بها الصاحب، ولمّا كان الصاحب مدعياً لنفسه بأنه نحوي بصير بإعرابه وبنائه، نجد التوحيدي يملأ الكتاب بمثل تلك المسائل النحوية التي يمكن أن أسميها "الصاحبيات" ولولا خشية التطويل لأوردت الكثير منها(٢).

والكتاب فيه حديث عن المعتزلة، وفرق الشيعة، وكان التوحيدي يهاجم الشيعة خاصة لما رأى من ركوب التشيّع، والتَمسح به، واتخاذه سلّماً للوصول إلى المآرب، كما اتخذته الشعوبية سلاحاً ضدَ الإسلام؛ ولهذا نرى التوحيدي يشير إلى جانب من مخازيهم، وسوء عقيدتهم، يقول لأحد الشيعة: " لوكنت ذائباً بحبّ آل الرسول، معتقداً بشرف العترة، راجعاً إلى صحة السريرة والعقيدة لظهر ذلك في عفتك وورعك، وصلاتك وصيامك، وحجّك وجهادك، وعبادتك واجتهادك، وصدقتك ومواساتك، مع إحياء الليل وإظماء النهار، واقتداء بالذين إياهم تحبّ، وعنهم تذبّ..." (٣).

وهو إن كان قد هاجم الشيعة، فإنّه قد نكّل بأهل الكلام، وسخر منهم، وحطّ من شأنهم، فيقول:"على أني ما بهرجت مذهب المتكلمين،

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ١٥٠.
(٢) انظر: المصدر السابق: ١٧٣، ١٧٥، ٢٥٤، ٣٣٦.
(٣) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ٣١٢.

ولا زيّفت مقالة المتفلسفين، وإنما قلت في أولئك أنهم ادعوا العقل وعملوا بالجور، وأمروا بالمعروف وركبوا المنكر، ودعوا الناس إلى الله بالقول ونفروا عنه بالفعل..." [١]. إلى غير ذلك من تشنيع وعداء للمتكلمين بعامة والمعتزلة بخاصة[٢].

وبنظرة عامة في كتاب "مثالب الوزيرين" نجد أنّ أبا حيان ليس أديباً ونحوياً فقط، وإنما نجده محللاً نفسياً، وناقداً اجتماعياً.

فمن نظراته النفسية العميقة قوله:"وجرى يوماً حديث المخاطبات عند القاضي أبي حامد المروروزي والترتيب فيها، وامتعاض الناس من التصاريف الجاري بين أهلها فقال: سبب هذا كلّه إحساس الناس بنقصهم القائم بهم،الراكد عليهم،الثابت فيهم..."[٣].ثم بعد ذلك وضّح السبب في حبّ الناس للتعظيم، فأرجع ذلك إلى شعور بالنقص قد يكون دفيناً، ثم بيّن الطريق الموصل إلى العظمة،وهو الأخذ بأخلاق من سلف من الحياء والمروءة والدين.ثم يتحدث عن المجتمع، وكيفية إصلاحه، وبيان قبيح العادات التي تؤدي به إلى الهاوية[٤].

وفي الكتاب قصص تاريخية، وحوادث موثقة غدت مصدراً لأكثر من مؤرخ، ومن ذلك قصة الصاحب مع "أبي الفتح ذي الكفايتين" التي انتهت بقتل الأخير، فقد أوردها التوحيدي[٥]، دونما تحيّز أو تزيّد، ولذا وجدنا كثيراً من المؤرخين يعتمدون عليها، ويجعلون رواية التوحيدي المعاصر لهما مرجعاً أساسياً في وصف أحداثها، وإتقان تسلسلها. وكثيراً ما نجد في الكتاب مرويات تاريخية، وكثيراً

(١) المصدر السابق: ٣١١.
(٢) المصدر السابق: ١٤٣ – ١٤٤، ١٤٢، ٣١٢ – ٣١٣. وغيرها.
(٣) المصدر السابق: ١٩١، وانظر: ٢٩٧.
(٤) المصدر السابق: ١٩٣، و١٦: حيث جعل توفية العمال أجورهم به قوام الدنيا وصلاحها.
(٥) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ٣٥٣ – ٣٦٠.

من القصص التي يستخدمها أبو حيان لتأييد قضية، أو للتدليل على مذهب يراه، خاصة مع الوزيرين[1].

وفي الكتاب تراجم لبعض المعاصرين لأبي حيان، فمن ذلك ترجمة للشاعر أبي السلم القحطاني[2]، وكذلك ترجمة عمرو بن عبيد[3]. وفي المثالب إشارة إلى نظام "الجاسوسية" المتبّع آنذاك، ودليل ذلك قصة الصاحب مع الشابّ السمرقندي الذي تجسس على الصاحب لركن الدولة، ويقول عنه: "أي شيطان هبط علينا، وأحصى ما كنّا فيه بيننا، وبلغ أربه منّا، وأخذ حاجته من عندنا، بلسان سليط، وطبع مريد"[4].

وفي الكتاب لمحات من علم أصول الفقه[5]، وكثير من قواعد الأخلاق الفاضلة[6].

وأخيراً، فهذه لمحة سريعة، أوضحت فيها أنّ الكتاب مليءٌ بالكثير من الإشارات إلى شتّى العلوم، فهو كتاب أدب وعلم، يجمع إلى الجدّ المزاح، فمرة يسليك، وأخرى يؤدبك، وثالثة يعلّمك.

٨ ـ منهج التوحيديّ في "مثالب الوزيرين":

إنّ ما يتميز به التوحيدي في كتابه هذا هو أنّه سخّر النثر الفني، وجعله سلاحاً للهجاء والثلب، وشيخه في هذا الباب "أبو عثمان الجاحظ" وخاصة في "رسالة التربيع والتدوير"، ولكن هناك فرق بين رجلين أحدهما هجّاء ساخر والآخر ناقد متشائم.

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٣٠، ٣١١، مثلاً.
(٢) المصدر السابق: ٣١٦ – ٣١٧.
(٣) المصدر السابق: ١٧٢
(٤) المصدر السابق: ٩٠ – ٩٢.
(٥) المصدر السابق: ٣١٣ – ٣١٤.
(٦) المصدر السابق: الصفحات: ١٣، ١٦، ٢١، ٢٢، ١٩٢. وغيرها.

والذي دعاني للتقديم عن الحديث عن منهجه بهذا هو ما سوف نراه في منهجه من اعتماده على الثلب، والتصريح بأنه يهجو ويذم لدافع شخصي، وهو شيء أظنه جديداً في الهجاء النثري.

وأول شيء اعتمده التوحيدي في منهجه هو توثيقه للكتاب بنفسه، فقد شرط على نفسه منهجاً معيناً في المقبول من مروياته عن الرجلين بقوله: "ولعمري قد كان أكثر ذاك إما بالمشاهدة والصحبة، وإما بالسماع والرواية من البطانة، والحاشية، والندماء، وذوي الملابسة"(١)، ولا يبدأ في ذكرهما إلاّ ويعاود كلامه حول مدى نزاهته في ثلب الوزيرين فيقول: "ولستُ أدعي على ابن عباد ما لا شاهد لي فيه، ولا ناصر لي عليه، ولا أذكر ابن العميد بما لا بينة لي معه، ولا برهان لدعواتي عنده..." (٢).

وأبو حيان لم يكن ليدع الملل والجدّ يأخذ من قارئ كتابه هذا، ولذا رأيناه تارة يأتي بنكتة مضحكة، أو استطراد شائق، أو كما قال هو بنفسه مبيناً المنهج الذي رسمه له "ابن سعدان": "وقلت: ينبغي أن تضيف إلى ذلك ما يتعلق به، ويدخل في طرازه، ولا يخرج عن الإفادة بذكره، والاستفادة من نشره، فإن ذلك يأتي على كل ما تتوق إليه النفس من كرمٍ ولؤم، وزيادة ونقص... ووفاء وغدر، ودهاء وغفلة، وبيان وعيّ، وخلاعة وتمالك، وحياء وقحة..." (٣).

وكان أبو حيان رجلاً صريحاً، والتزم هذه الصراحة منهجاً له، سار عليه في كتابه، حيث بيّن ذلك بقوله: "... إلاّ بعد أن تدع المحاشاة وأنت مقتدر، وتفارق المخاشاة وأنت متبصّر، وإلاّ بعد أن تترك العدوّ والحاسد يتّقدان بغيضهما اتّقاداً، فإن التقية في هذا الفن

(١) مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٨.
(٢) المصدر السابق: ٥٤. وكذلك: ٦٦.
(٣) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ٨. بتصرف.

مجزعة مضرعة..."[1]، ولهذا نجده يصرح دائماً بأنه يثلب ويعيب، – كما قدمت – انتقاماً لإخفاقه منهم، أما غيره فكان يثلب ويعيب، متذرعاً بالدفاع عن رأي أو فكرة أو طريقة"[2].

ومن الأشياء التي أراد التوحيدي الالتزام بها، ولكنه كان يكبو حيناً ويقف حيناً آخر، هو أنّه أراد أن لا يجعل الكتاب كلّه ثلباً للرجلين، بل يجمع إلى ذلك أشياء من محاسن الرجلين، مع شيء من العدل المحمود، فيقول على لسان "ابن سعدان" في المنهج الذي رسمه له: "ولستُ أسألك أن لا تذكر من حديثهما إلاّ ما كان جالباً لمقتهما، أو داعياً إلى الزراية عليهما... بل تضيف إلى ذلك ما قد شاع لهما، وشهُر عنهما، من فضائل لم يثلثهما فيها أحدٌ في زمانهما، ولا كبير معن تقدّمهما، فإنّ الفائدة المطلوبة في أمرهما، وشرح حديثهما، تأديب النفس، واجتلاب الأنس... وتخليص ما حَسُن مما قَبُح... مع العدل المحمود فيما أشكل"[3]. والسؤال الذي يجب أن يطرح هو: هل التزم التوحيدي هذا المنهج في هذه القضية خاصة؟ والجواب سيكون بالطبع: لا! لأن الرجل ما إن يبدأ في مدحهما، أو ذكر محاسنهما، إلاّ ويحوّل ذلك المدح هجاء، وتلك المحاسن رزايا؛ لأنه – كما سيأتي – معذور في زعمه، فالألم قد أحرقه، وباله مشغول كما يزعم.

والجميل هو أن تجد أنّ أبا حيان يعترف بأنّ ما رُسم له من منهج من قبل "ابن سعدان" هو منهج يصلح لرجل لم يحرقه الألم، وباله ليس مشغولاً، أما هو فإنه لا يستطيع الوفاء به، مع محاولته الالتزام بالمنهجية قدر المستطاع، يقول "وجميع ما قلتَه... لستُ

(١) المصدر السابق: ٨

(٢) أبو حيان التوحيدي، لإحسان عباس: ١٣٠.

(٣) مثالب الوزيرين لأبي حيان: ١٠ – ١١.

جاهلاً به، ولا ذاهلاً عنه، ولكن من لي بعتاد ذلك كله، وبالتأتي لـــه، وبالقدرة عليه، وبالسلامة فيه، إن فاتتني الغنيمة فيه مـــع صـــدري الضيق، وبالي المشغول... وإني لأظنّ أنّ الطائع لك في هذي لخطّة، والمجيب عن هذه المسألة قليل النّقية، ســـيئ البقيـــة..." [1]. فهـــو يعترف بضعف قوته، وقلة حيلته، وسوء جزعه. وهناك "لطيفة" وهي ذكر أبي حيان لكلمة "خطة" وهذا يوقفنا على بدايـــة ظهـــور بعـــض ملامح البحث العلمي، المعتمد على تخطيط مسبق.

وأبو حيان في كتابه هذا اتخذ الاستطراد منهجاً لازماً في إتبـــاع الشيء بنظيره، والقصة بما يشكلها ويعضدها؛ حتـــى تتعمـــق فـــي النفس، وترسخ في الذهن، ومن ذلك حديثه عن "البذل والمنع" وذكره لما قال "للمأمون"ثم أتبعه بقول الحطيئة،ثم بما قاله أبوالعتاهية..."[2].

ومن منهج الرجل أنّه يبدأ في الحديث عن قضية ما، وفجـــأةً إذا به يرمي الصاحب بالشتائم، ويقرعه بأشنع الأوصاف، وعلّته في ذلك كما ذكر في إحدى تلك المفاجآت: "وصلتُ هذا الفصل بقولٍ فاضت به النفس بعد امتلائها، وجاشت به بعد تردده فيها..." إلى أن يقول: وأنا أعتذر من أن أصل مخاطبتي لك بمثله، وإن كنت أجعله بمنزلة اللهو الذي أستعين به على الحق..." [3]. وهكذا فهو دائماً يلذع مهجوّيـــه من جهتين، من جهة ذاتية، وأخرى بما يعقده مـــن مفاضـــلة بـــين المهجو والممدوح، حين يُبدي الفرق بين المنزلتين.

وأبو حيان كثيراً ما يلخص بعض ما يورده، خصوصـــاً إذا أورد قصة، ورأى أنها قد طالت،وقد ابتعد وصعب على القارئ فهم المغزى

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ١٢ – ١٣، وانظر اعتذار آخر: ٢٧.
(٢) المصدر السابق: ١٩ – ٢٠.
(٣) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ٣٦ –٣٧.

منها. فإنه يقول باختصار الهدف والمراد منها. مثل قصة "ابن مكرم وأبو العيناء" فقد لخصها في بيتين[1]،ومثلها رسالة الجاحظ[2].

ومن الأشياء الظاهرة في منهجه: المنهجية في الإقناع، واستخدام الدليل والحجة والبرهان، لما سيقوم به من ثلب، خاصة في قضية "أنّ الكريم لا بدّ أن يمدح ويشتهر بين الناس بما هو عليه من خلال، وأنّ اللئيم والبخيل، وصاحب الأخلاق السيئة لابدّ أن تظهر أخلاقه للناس، ويشهّر به على رؤوس الخلائق، وأنّ الإنسان لا ينبغي له أن يقف مكتوف الأيدي. فإننا نجد التوحيدي يحاول أن يثبت في ذهن القارئ ذلك، مستدلاً بالقرآن[3] والسنة[4] والشعر[5] والتاريخ[6] ثم بالأمثال وأقوال العامة[7]، ورسائل الأدباء[8]، وهذه كلها تدور في فلك الموضوع، فاستطاع إقناعنا أيما إقناع. ولا ينسى أبو حيان الاستعانة بآراء الآخرين المعاصرين له من علماء ووزراء للاستدلال بأقوالهم، والأخذ بآرائهم، وسؤالهم عما يشكل، والاستفسار عن بعض الأشخاص[9].

وقد جعل التوحيدي لكتابه هذا "مقدمة" بلغت حوالي ثلاثاً وخمسين صفحة، جعلها كلها تقديماً لموضوعه، وبياناً للأسباب التي حملته على تأليف الكتاب، ومسوغات هجائه، وما هي المعوقات التي

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٤٩ – ٥٢.
(٢) انظر: المصدر السابق: ٢٤ – ٤٣.
(٣) انظر: المصدر السابق: ٤٧.
(٤) انظر: المصدر السابق: ٣٣.
(٥) انظر: المصدر السابق: ٤٢.
(٦) انظر: المصدر السابق: ٤٣.
(٧) انظر: المصدر السابق: ٨.
(٨) انظر: المصدر السابق: ٥٠ – ٥١.
(٩) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي: ٧٦ – ٨٠ وغيرها.

اعترضت سبيله، كل هذا في جوّ علمي خالص، معتمدٍ على التحليل والتعليل والتدليل؛ لنراه يقول بعدها: "قد ذكرنا – حاطك الله – جملة من القول رأينا تقديمها والاستظهار بها قبل أخذنا فيما أنشأنا له هذا الكلام..."[1]، ومع كل هذه المقدمة الطويلة نراه يحسد الصاحب في تقدمة ولو لسطر واحد، فيقول عند بداية الحديث عنه: "وهذا مبدأ الخبر في ابن عباد على ما يتفق من ترتيبه ووضعه، غير آخذ في أهبة، ولا محتفل بتقدمة"[2].

ويحاول التوحيدي دائماً استمالة القارئ، وجذبه إلى صفه، وذلك باستخدام كل الوسائل الفنية والعقلية التي أتيحت له، فمن ذلك نجده دائماً يكثر من الحديث عن أنّ أشياخه كانوا يحاولون جاهدين دفعه عن الإقدام في هجاء الرجلين، ولكنه كان يردّ عليهم بردود قوية، ويطيل فيها، فيقتعهم، وما إقناعهم الوهمي إلاّ إقناع للقارئ الذي يتصفّح كتابه هذا[3]. ومن استمالته ما أورده من حديث قبل البدء في ثلب الصاحب ما معناه: أنا أستطيع أن أمدح هذين الرجلين مدحاً لا يوصف، ولكني أخاف إن فعلت أن يقال عني كاذب، وذلك حين يسمع هذا المدح مني مَنْ شاهدهما، وتبطّن أمرهما[4]. فهو هنا يوهمك ويقنعك بأنّ ما أورده عنهما حقيقة لا مجال لتكذيبها أبداً.

والتوحيدي إذا أراد أن يردّ قضية ويفنّدها، ويظهر زيغها وبطلانها، فإنه يعتمد في ذلك منهجاً يظهر مدى قوة عقليته المنظمة، فيبدأ أولاً بذكر آراء الخصم، وجميع حُججه؛ حتى كأنه قد اقتنع بتلك الحجج، ثم ما هي إلاّ لحظات حتى تراه بعدها ينقضّ كالأسد على

(١) المصدر السابق: ٥٣.
(٢) المصدر السابق: ٦٦.
(٣) انظر: المصدر السابق: ٢٨ – ٣١.
(٤) انظر: المصدر السابق: ٥٥ – ٥٧ بتصرف.

فريسته، مفنداً تلك الحجج، وناقضاً لعُراها عروةً عروة، فلا يترك ثغرة إلاّ ويقتحمها، في قوة تدليل، وبراعة استنتاج. ومن ذلك ما دار بين الصاحب وبين الهروي في قضية الطب، وكذلك في نظرته – أي الصاحب – لعلم النجوم، حين رفض الصاحب هذين العلمين، ورأى أن لا حاجة إليهما. فبدأ التوحيدي بذكر آراء الخصم، ثم ثنّى بردوده وتعليلاته، وإقناعه، حتى وصل الأمر إلى أن قال: "فهل رأيت بهتاً أشدّ من هذا، ومناقضة أقبح من هذا، يذمّ شيئاً في الظاهر، ثم يحبّه في الباطن، ويزهّد غيره في شيء وهو يؤثره"[1].

هذه بعض اللمحات والإشارات السريعة إلى منهج أبي حيان في كتابه "مثالب الوزيرين"، تظهر مدى قدرته على تنظيم المعلومات، وإجادة فنّ القول، وقدرته كذلك على تحليل الشخصيات، والدخول إلى أعماقها، والوقوف أمامها طويلاً، لاستخراج ما تكنّه وتخفيه. كل ذلك في جوّ مرح، وأسلوب شائق سلس، لا تحسّ معه بسأم أو ملل؛ لما يرد إلى سمعك من نكتة فكهة، أو بيت جميل، أو قصة ممتعة.

(١) المصدر السابق: ٨٠ – ٨١.

ثانياً: الدراسة الفنية التحليلية

عاش أبو حيان في عصر أدبي غلبت عليه الجمالية اللفظية، والبديعية. كما بدا ذلك في أسلوب ابن عباد والحريري والخوارزمي وغيرهم من معاصريه. على أنّ أبا حيان سلك مسلك الثقافة الرصينة العميقة، والتجأ إلى الفن في الكلام، معبراً عن أصدق ما تعتلج به نفسه، ويحلق خياله، فكان له أسلوب متفرد أصبح ظاهرة مستقلة، انضمّت إلى أسلوب أمثاله من أدباء عصره. وقد ترعرت هذه الظاهرة بهدي آثار الجاحظ وأسلوبه. ولكن فساد الذوق الجمالي الشائع، منع أكثر الناس من إدراك أهمية أسلوب أبي حيان وفنّه الجميل.

استمرّ الجهل بأبي حيان، وإغفال أهمية أسلوبه وفنيته في الكتابة إلى عهد قريب. يقول المستشرق "آدم متز" عن أسلوب أبي حيان: "وقد بلغ أبو حيان التوحيدي... مرتبة الأستاذ لهذه الطريقة. وكان على ذروة من ذراها. وأول ما نلاحظه أنه كان عالماً بدقائق الأسلوب الرائع، وقادراً عليه؛ غير أننا نكاد لا نلاحظ في أسلوبه ذلك التكلف الذي نجده عند غيره من الأدباء. ولم يُكتَب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هو أبسط وأقوى وأشدّ تعبيراً عن مزاج صاحبه مما كتب أبو حيان؛ ولكن الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين في البديع... ولقد كان أبو حيان فناناً غريباً بين أهل عصره، وكان يعاني وحشة من يرتفع عن أهل زمانه، ويتقدّم عليهم..." [1]. ومن أهم ملامح أسلوبه الفني في كتابه ما يلي:

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، لآدم متز: ترجمة أبي ريدة ١/ ٤٤٧.

وانظر الحديث عن هذه القضية موسعاً في كتاب: "فلسفة الفن عند التوحيدي"، د. عفيف البهنسي: ٣٣ – ٣٥.

١ـ براعته في التصوير ودقّته في التحليل:

لقد استطاع التوحيدي أن يتحكم في قلمه، ويعرف كيف يحرّكه، وكيف ومتى يبدأ؟ وما اللوحة التي يرسمها؟ إذ أصبحت اللغة بين يديه مرنة مرونة العجين في يد المصور الحاذق.

أما مادة هذا الفن، وتلك الصور، فيقول عنها عبدالرزاق محيي الدين: "ومادة فنّ الرجل ينتزعها من جماع ما يهجس بنفسه، أو يلوح لعينيه أو يمرّ على سمعه، فقد تكون هاجساً شعورياً، وقد يكون مدركاً عقلياً، كما قد تكون منظراً شهده، أو قصة نمت إليه، أو رأياً قال به غيره. ولكن مادة هذا الفن لا بدّ لها في رأيه أن تكون من تلك المعادن الكريمة، والجواهر النفيسة التي تثبت للصقل والصهر... فيتناول آنذاك المادة الغفل بيد الفنان الماهر... فلا يفتأ يدخل عليها من فنه، ويشيع فيها من روحه ما يبعث فيها الحياة والقوة والجمال"(١).

ولعلي أقف الآن لأبين ملامح تلك البراعة، وأوجه تلك الدقة، التي تتمثل في هذا الكتاب في وصفه للرجال وتحليل نفسياتهم، والكشف عن مواهبهم، وكأنه يقوم بتشريح هذه الشخصيات، أو يصفها من الداخل، يبرز القسمات، ويوضح المعالم، ويحيط بالشخصية من جميع نواحيها بحيث لا يترك مزيداً لأحد، فها هو يصور حسد الصاحب للمُجيدين: "... ولم يكن عليه طابع العبادة ولا سيماء المتألهين. وكان مع ذلك سفّاكاً للدماء، قتّالاً للنظراء والأكفاء... وكان إذا سمع من إنسان كلاماً منظوما، ومعنى قويماً، ولفظاً مسجوعاً، ونثراً مطبوعاً، وبياناً بليغاً، وغرضاً حكيماً، انتقص طباعه، وذهب عليه أمره، وتبدّد حلمه، وزال عنه تماسكه، والتهب

(١) أبو حيان التوحيدي لعبدالرزاق محيي الدين: ٣٤٥.

كأنه نار، واضطرب كأنه شرار، وحدّث نفسه بقتله أو نفيه"[1]. ويمضي على هذا النحو يحلل شخصية الصاحب بدقة متناهية.

وتكثر عند أبي حيان الصور ذات المنحى النقدي أو الهزلي "الكاريكاتوري" الذي يجمع لك خصائص الموصوف النفسية والخلقية والفكرية في ألفاظ قليلة، بعيدة عن الحشو الذي يفسد الصورة، ويضيع معالمها، فلنسمع التوحيدي وهو يصف الصاحب حين ينشد شعره، يقول: "وكان ينشد وهو يلوي رقبته، ويجحظ حدقته، وينزّي أطراف منكبيه، ويتسايل ويتمايل كأنه الذي يتخبطه الشيطان من المسّ"[2]، وأبو حيان يحاول استقراء المفردة اللغوية، والإحاطة بكل ما ينبثق عنها من ظلال وإيحاءات، فنجده كذلك يحاول التماس النعت الذي يوافقها أشدّ الموافقة، حتى لكأنه يلتصق بها التصاقاً دون غيره من النعوت، فيقول عن الصاحب: "ومن مناقبه في مثالبه أنّه يقنع منك في مدحك بالنفاق، وفي ثنائك عليه بالرياء، وفي نصرة سيرته بالحيلة... وفيه مع ذلك كياد مخنث مجفوّ، وسفه ضرّة رعناء، ونميمة كنة سلطة"[3]. وقد نحتاج إلى كثير من التأمل والاستقراء قبل أن نجد أوصافاً للكياد والسفه والنميمة، تتساوق وإياها تساوق الأوصاف التي أتى بها أبو حيان في عبارته السالفة.

٢ـ المبالغة والتهويل:

من خصائص أبي حيان التهويل في المبالغات الافتراضية، سواء أراد التعظيم أم أراد التحقير، فهو لا يستطيع أن يملك نفسه في الغضب والرضا، ولقد كان من قوله عن نفسه: "... ولم ترضَ مني

(١) مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٨٢ – ٨٣.
(٢) المصدر السابق: ٧٣. وانظر كذلك: ٧٩.
(٣) المصدر السابق: ٢١٩.

إلاّ بالمبالغة والاستقصاء، وإلاّ بمبالغة الأعداء، وذوي الشرّ"[1]، وكل ذلك كان بسبب ما غلبه من الهوى الذي ضرب عليه بجرانه.

ولهذا نجد التوحيدي حينما يتحدث عن الصاحب بدافع الغضب والحقد تبرز عنده هذه الخصيصة بروزاً واضحاً، فهو يستخدم التعميم في إطلاق الأحكام عليه،خاصة إذا أراد أن يسلبه مكرمة،أو خلة حسنة، فإنه ينفيها عنه جملة وتفصيلاً، ومثال ذلك قوله عنه: "وما أتأمله في حال من الأحوال إلاّ وجدته برقاً كاذباً،ورأياً عازباً،وركاكة ظاهرة...لم ينشأ منشأ أدب، ولا راضته أولية حسب،فهو دهره على وجل وذعر، إن صال فعلى القريب الداني،وإن همّ فبمعضلات الأماني..." [2] وهكذا تراه يستمر في تلك المبالغات، فلم يقل عن الصاحب: كان في دهره، أو في بعضه، وإنما قال: فهو دهره على وجل. فاستغرق جميع حياته كلها التي بنيت على الذعر والوجل، وهذه مبالغة توحيدية.

نجده كذلك يسرف في تصوير المفظعات، والإلماح إلى حوادث معينة، ويعرض بشخصيات معاصرة، في تندّر لاذع، كل ذلك يسوقه لكي يجعل القارئ يعيش واقع الكلمة، ويحسّسه بأنّ ما يقرأه حقيقة لا مبالغة، فتراه يقول عن الصاحب حين غضب عليه بسبب رده لرسائل الصاحب التي بلغت ثلاثين مجلدة، واعتذر بأنه لا يستطيع نسخها جميعاً، وإنما سيختار منها روائع كالقلائد، فغضب لذلك الصاحب، وقال: عاب رسائلي، والله لينكرنّ مني ما عرف، يقول أبو حيان: "كأنّي طعنت في القرآن، أو رميت الكعبة بخرق الحيض، أو عقرت ناقة صالح، أو سلحت في زمزم، أو قلت كان النظام مأبوناً، أو كان العلاّف ديصانياً... أو كان عبّاد معلم الصبيان..." [3].

---

(١) مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٢٤.
(٢) المصدر السابق: ٣٧.
(٣) المصدر السابق: ٣٢٥ – ٣٢٦.

وهكذا نرى كيف يتحدث أبوحيان في مبالغة مع تهويل، وفي الوقت نفسه لا تخلو من تهوين.

٣- الرسم الساخر:

لمّا عزم التوحيدي على المضيّ قدماً في هجاء الصاحب وابني العميد، لم يكن جاهلاً بالأساليب الفنية، والطرق الملائمة التي تمكنه من استخدام مقدرته استخداماً موفقاً. فعمد إلى أسلوب الرسم الهزلي الضاحك الذي يجعل الشخصية كدُمية خشبية تتراقص بين يديك. وهو ما نراه اليوم في صفحات صحافتنا، حيث يعمد أحد الصحفيين إلى الحديث عن قضية سياسية، أو ظاهرة اجتماعية أراد نقدها، فيرى أن رسم تلك الظاهرة بطريقة فيها تناقض وتداخل، وتضخيم للعيوب، هي أفضل وسيلة للوصول إلى قلب القارئ، وهو ما يعرف "بالكاريكتير" حتى إن كثيراً من الناس يشتري بعض الصحف من أجل أنّ فيها رساماً مبدعاً يجيد تلك اللوحات الفنية، المصورة لما يجري من أحداث. تلك الرسوم التي يظنّها الكثير سهلة، وهي أصعب مما يتصور إذ إنّ أثرها في النفوس أبلغ من عشرات الصفحات المليئة بالشروح والتحليل والإيضاح.

ولهذا يقول الكيلاني: "الرسم الهزلي هو تحليل خاطف للعناصر المكونة للشخصية، واستخراج النلحية أو النواحي الشاذة التي تبدو على أثر تفخيمها أو المبالغة فيها موضع الاستغراب أو الضحك أو الهزء... والضحك يُعدُّ سلاحاً بيد المجتمع لردّ الناس إلى الجادة السوية، ومنبهاً للنشاط الراكد، ورادعاً للشذوذ عن أنظمة المجتمع، فهو -إذن- أداة الكمال المطلق..."[1].

وكلنا يعرف أنّ كل انحراف للحياة في اتجاه الآلية لا بدَّ من أن يصبح باعثاً على الضحك، فليس من عجب أن نرى أبا حيّان يصور

(١) أبو حيان التوحيدي، د. إبراهيم الكيلاني: ٧٢ - ٧٣.

لنا سلوك الشخصيات التي يريد أن يسْخر منها على أنّه سلوك آلي رتيب، يصدر فيه العقل مطرداً على وتيرة واحدة، وتتخذ فيه العادة طابعاً ميكانيكياً يلتزمه الشخص حتى حين لا يكون ثمة داعٍ إلى ذلك، فنراه ينسب إلى ابن العميد أنه كان إذا رأى الصاحب قال: "وأحسب أن عينيه قد ركبتا من زئبق، وعنقه عُمل بلولب. وصدق؛ لأنه كان ظريف التثنّي والتلوي، شديد التفكك والتفتُّل كثير التعوّج والتموّج شكل المرأة المومسة، والفاجرة الماجنة، والمخنّث الأشمط"(١).

وقد حرص التوحيدي على المزج بين ملامح الوجه وحركات الجسم، لكي تتوافر له عناصر الإضحاك، وتستقيم الصورة، فنجده يحدّث أنّ الصاحب وجّه إليه إهانة يوماً ما، فهمَّ بالردّ عليه، فأشار إليه الزعفراني أن اسكت واحتمل فالرجل رقيع، فغلب على أبي حيان الضحك، واستحال الغيظ تعجباً من خفته وسخفه؛ لأنّ الصاحب قال تلك الإهانة "وقد لوى شدقه، وشنج أنفه، وأمال عنقه، واعترض في انتصابه، وانتصب في اعتراضه، وخرج في مَسْك مجنون، قد أفلت من دير جنون"(٢). ويقول: "وكان – الصاحب – ينشد وهو يلوي رقبته ويجحظ حدقته، وينزّ أطراف منكبيه، ويتسايل ويتمايل كأنّه الذي يتخبطه الشيطان من المسّ"(٣).

ولم يَفُتِ التوحيدي – إمعاناً في السخرية، وإيغالاً في الهزء من الصاحب – أن ينطقه بكلمات غريبة، تحوي عناصر الإضحاك، وذلك ليجعل من سجع الصاحب المتكلف مادة جاهزة أمامه ينتقي منها ما يشاء، ومن ذلك ما قاله الصاحب "لعبدالله المعلم" وقد أنشده: "يا عبدالله أنت طويل النفس، عتيق القوس، شديد المرس. وقال لشيخ

(١) مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٨٠.
(٢) المصدر السابق: ٩٩.
(٣) المصدر السابق: ٧٣.

من خراسان في شيء جرى. والله لـولا شـيء لقطعتـك تقطيعـاً، وبضعتك تبضيعاً، ووزعتك توزيعاً، ومزعتـك تمزيعـاً، وجزعتـك تجزيعاً، وأدخلتك في.....، ثم وقف وقفة وقال: جميعاً"[1]، وكذلك قوله: "سمعته يشتم في هذه الأيام إنساناً فقال: لعن الله هذا الأهـوج الأعوج، الأفلج الأفحج الخفلج، الذي إذا قال لجلج، وإذا مشى تفحّج، وإن تكلّم تلجلج، وإن تنعَّم تمجمج، وإن مشـى ترجـرج، وإن عـدا تفجفج..." [2]. وهكذا نرى أنّ أبا حيان قد أجاد فهم هذا الفـنّ، كمـا أجاد تطبيقه: "وكأنه أدرك بثاقب فكره، وصفاء ذهنه، أنّ الصورة لا تكون مضحكة إلاّ إذا أظهرت في شكلها المادي"[3] وقد أشار إلى هذه الحقيقة بقوله: "ومُلح هذه الحكاية ينتثر في الكتابة، وبهاؤها ينقص بالرواية دون مشاهدة الحال، وسماع اللفظ، وملاحـة الشـكل فـي التحرك، والتثني والترنّح والتهادي، ومدّ اليد،... واسـتعمال جميـع الأعضاء والمفاصل"[4].

والكتاب مليء بتلك الصور الساخرة التي مثلت هجاء التوحيـدي أصدق تمثل، ومثلت كذلك قدرة النثر على الهجاء حين تتكون أدواته في يد ماهر قادر على التحكم فيه، ممتلك لموهبة فنية غنية، ولثروة لفظية سخية.

"وهكذا أظهر التوحيدي براعة كبرى في فن التصـوير النقـدي، فكان في الطليعة بين أصحاب الأقلام السـاخرة مـن رجـالات الأدب الهزلي"[5].

(١) مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٩٨.
(٢) المصدر السابق: ٢٥٩.
(٣) أبوحيان التوحيدي، للدكتور الكيلاني: ٧٦.
(٤) مثالب الوزيرين، للتوحيدي: ٩٩.
(٥) أبوحيان التوحيدي، للدكتور زكريا إبراهيم: ٢٦٨.

٤ـ طول النفس وقصره:

أبوحيان كان يتحدث في كتابه عن موضوع غريب على النـــاس، وهو موضوع "ثلب الوزيرين" اللذين ما كان النـــاس ليتصـــوروا أن يتطاول عليهم أحد ولو بتجريح يسير، فجاء التوحيدي وانهال عليهما بهذه المعايب والشتائم. فوجدناه دائماً يكرر ويردد في بعض المواقف التي دعته للخوض في أمرهما، ويظلّ يبدئ ويعيد أنّ حمد المحسن، وذم المسيء أمر قد عرفته العرب قبله، وأنّ المجتمع إذا ظلّ علـــى هذه الحالة التي هم عليها فإنه سيظل محاطاً بسياج مـــن العبوديـــة والقهر.

ولهذا وجدناه يكرر المعنى، ويطنب فيه ليصل إلى مراده ومأموله منه، فتارة يمثل، وأخرى يقصّ، وفي أثناء حديثه عن سبب تـــأليف الناس للمناقب والمثالب، أورد أمثلة متنوعة، وكان يكفيه من ذلـــك كله مثال واحد فقط[١]. ولهذا نجده يذكر ويقـــول مكـــرراً: "وأرجـــع فأقول: وما خلا الناس منذ قامت الدنيا من تقصير..." [٢]، وهو مـــع إطنابه الكثير يحاول أن يقنعك بأنه لم يطل عليك، فتجده يقـــول لـــك: "وكذلك تركت غيرها هرباً من التطويل"[٣].

ووسيلته إلى الإطناب التعبير بكلمات مترادفة، أو ترديـــد بعـــض الكلمات والجمل، أو تشقيق معانٍ عدة من معنى، أو تكرير المعنـــى الواحد في عبارات مختلفة، تخيل إلى القارئ أنّ لكـــل منهـــا معنـــى خاصاً، فإذا تدبّر وجد المعنى واحداً، أو كالواحد.

وسبب هذه النزعة الجاحظية عنده هو حرصه على التوضـــيح، ورغبته في التوكيد، وقدرته على التوليد والبسط، وثراؤه اللغـــوي،

---

(١) انظر: مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٣٤.
(٢) المصدر السابق: ٢٠.
(٣) المصدر السابق: ٤٧.

وخير مثال على ذلك رسالته لابن العميد التي بدأها بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم هيّئ لي من أمري رشداً، ووفقني لمرضاتك أبداً، ولا تجعل الحرمان عليَّ رصداً. أقول وخير القول ما انعقد بالصواب، وأجلب النفع وما تعلق بالمزيد، وخير المزيد ما بدا عن شكر، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص، وخير الإخلاص ما نشأ عن إتقان، وخير الإتقان ما صدر عن توفيق؛ لما رأيت شبابي هرماً بالفقر، وفقري غنياً بالقناعة، وقناعتي عجزاً عند التحصيل، عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكاني فيه، وموضعي منه، فرأيت طرفه عني نابياً، وعنانه عن رضاي منثنياً، وجانبه في مرادي خشناً..." (١).

وهو مع هذا الإطناب الذي قصد إليه في الكتاب لحاجة في نفسه، نجده لا يعجز عن القول البليغ الموجز، وإنما كانت الإطالة التي عمد إليها وليدة ظروفها ومناسباتها، فلقد وجدنا أبا حيان قادراً على إيراد المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة المؤدية للغرض في أجمل عرض، وأتم بيان، كأن يقول وهو يتحاور مع بعض أصحابه حول انقضاء أيام الخير، واضطرار الناس إلى قصد الصاحب: "يا هذا خلت الدنيا من الكرم والكرام، واصطلح الناس على قلة المباهاة بالفضائل، وكان هذا منوطاً بالخلافة فانقضت أيام الصدر الأول بالدين الخالص، وأيام بني مروان بالرياء والسمعة، وأيام بني العباس بالمروءات والتوسع في الشهوات، ولم يبق بعد هذا شيء. ولا بدّ للناس من الانتجاع..."(٢)، يقول الدكتور محمود إبراهيم: "ويكفي أن نتصور ما نحتاج إليه من حيّز في كتاب أو أكثر للحديث عن الأوضاع في دول ثلاث: دولة الراشدين والأمويين والعباسيين، ثم الحديث عن عدم توافر العمل لجميع الناس، وضرورة التفاوت والتنوع في المراتب

(١) مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٣٢٧ – ٣٢٨.
(٢) المصدر السابق: ٣٢٢.

والأعمال، لكي ندرك ما احتوته عبارة التوحيدي القصيرة من معان غزيرة"[1].

٥ ـ الثراء اللغوي:

إنّ وصف الكثير من النقاد والمؤرخين لأبي حيان بأنه ربما كان أعظم كتّاب النثر العربي على الإطلاق، وأنه كان فرد الدنيا، الذي لا نظير له، فصاحة ومكنة، وذكاء وفطنة؛ لم يأت من فراغ، وإنما كان مبنياً على استقراء لكل ما كتب الرجل، وإنّ نظرة فاحصة لكتابه الذي بين أيدينا – مثالب الوزيرين – تجعلنا نطل على شواهد صادقة لتلك الدعوى النقدية، وتلك الأحكام السليمة التي أطلقت عليه.

إنّ أبا حيان كان عجيباً في تمثله للغته، قوياً في التحكم بها، فمما يندهش له قارئ كتابه قدرتُه العجيبة التي يتمتع بها، قدرة يكتب صاحبها في العلوم المختلفة فلا تخونه لفظة، وتتناسق الجمل في تركيبها تناسق العقد النفيس ويوائم بين ألفاظه ومعانيه أيّ مواءمة. ويؤثر في قلب السامع فيستميله بما يمليه من مقوله على مسمعه. ويؤكد محمد كرد علي على هذه المزية بقوله: "أرأيتم كيف آضت اللغة في يد التوحيدي كالعجين يرسمه الرسم الذي يشاء، أو كالقرطاس في يد المصور الحاذق، وعنده جماع الأصباغ يصوره بما تهفو إليه نفسه من صور الأرض والسماء؟"[2].

اللغة في نظر التوحيدي واسطة تعبير وتصوير، لا أداة لطافة وظرافة، كانت على أسلة قلمه غزيرة المائية نضيرة الديباجة، وكان بيانه الصافي البراق، يسيل مطواعاً لبنانه، لغته مرنت ألفاظها على التعبير عن كل معنى، وصفا رصفُها ونسجها، فكانت من أجمل صيغ

---

(١) أبو حيان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم، د. محمود إبراهيم: ٨٥.

(٢) أمراء البيان لمحمد كرد علي: ٤٩٤.

الإفهام والانسجام، ولطفت مادتها فخرج منها الحوشي بقاعدة بقاء الأنسب، ودرجت بعد تلك نقية لا شوب فيها ولا تعقيد.

لقد عمد التوحيدي إلى استخدام ألفاظ تبهرك في رصفها إلى جانب أخواتها، ويتعذر عليك أن تخلي المكان من لفظة لتضع غيرها محلها، استمع إليه وهو يحدثك عن جزاء التقصير حيث يقول: "وكذلك يركلون على التقصير باللائمة، ويجبهون على اللوم بالآبدة، وينمون على التهاون بكل فاقرة، ويطوقون بكل خزي ومعرة، ويواجهون بكل شنعاء مفضغة، ويعاتبون بكل فاحشة منكرة، ويرمون بكل ساقطة ولاقطة، ويحرقون بكل نار حامية، ويقذفون بكل مخجلة مندية"[1]. فانظر إليه كيف استطاع أن يفتح بين عينيه المعجم اللغوي العربي، واختار منه كلمات تدل على قدرته في الانتقاء، وروعته في الاصطفاء، فكل حدث وانفعال، أو صفة ذكر لها ما يناسبها، فالغيبة بكل فاحشة منكرة، واللذم بالفاقرة وهكذا...

والقدرة على إجادة التراكيب، وضمّ جملة إلى أخرى، أو ما يماثلها، عملية ليست سهلة، ولا يؤتاها إلا رجل قد خبر اللغة، واستطاع أن يتفهم أساليبها، وأن يعرف أسرارها، وممتلكاتها البيانية، وصاحبنا من الذين مكّنَتْهم مكنَتُهم اللغوية من إدراك العلاقة بين الكلمات والجمل، فاسمع إليه لتسمع السحر الحلال، يقول: "وأنت حفظك الله إذا نظرت إلى الدنيا وجدتها قائمة على هذه الأركان، جارية على هذه الأصول، ثابتة على هذه العادة، فكل من كان نصيبه من الكَيْس والحزامة أكثر كان قسطه من النفع والعائدة أوفر، وكل من كان حظه من العقل والتأييد أنزر، كانت تجارته فيه أخسر، وعاقبته منها أعسر..." [2] فهو هنا قد وضع يده على أسرار النظم،

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان: ٢٣.
(٢) المصدر السابق: ٢ – ٣.

وسحر البيان، وهو لم يعتمد في هذا على طبعه فقط، وإنما جمع إلى ذلك معرفة بأصول الصناعة.

ويبدو لنا كما يقول "إحسان عباس" أنّ أبا حيان يقف من بعض النزعات الجديدة في عصره وقفة الجاحظ (المحافظ المتشدد) فقد كانت طريقته عودة إلى الماضي بإحياء أسلوب الجاحظ، وبعث طريقته الإنشائية، فلقد بسط الأسلوب الجاحظيّ ظله على أبي حيان؛ حتى أصبح أسلوبه حكاية دقيقة له، لولا فوارق الزمان والمكان، ولقد تعصّب له التوحيدي حتى عرفه الناس به، فهذا مسكويه يقول له كلّما استشهد بالجاحظ: "يقول "صديقك" أبو عثمان[1].

٦ـ موقفه من البديع:

حفلَ أسلوب أبي حيان في كتابه هذا بلمسات فنية بديعة، تستدعي الانتباه، وتستوقف الذوق، ولا غرابة في ذلك، فعصر التوحيدي عصر انتشر فيه البديع بفنونه كلها. ولكن السؤال ما موقف التوحيدي من ذلك، وإلى أي مدى استغله في كتاباته؟

أما عن السؤال الأول فنجده يقول في كتابه "مثالب الوزيرين": "فإنّ فنون الكلام محصلة على التقريب بين النَبر والسجع والوزن، وما يسميه قوم تجنيساً وتطبيقاً. ومنها شيء يجب أن يُسمى المسلسل، وأمثلته في كلام أبي عثمان موجودة"[2]. ولكن السجع حين يغدو غثًّا من أجل إظهار القدرة عليه، واستعمال الغريب المتكلف، فإنّ أبا حيان يقف من هذا النوع موقف العداوة الضارية، ولهذا – كما مرّ – هاجم الصاحب، وسخر به سخرية مريرة؛ لولوعه بالسجع، وحرصه عليه، وتمسكه به في جميع كلامه بمناسبة وبغير مناسبة.

(١) أبو حيان التوحيدي لإحسان عباس: ٢٠ – ٢١ بتصرف.
(٢) مثالب الوزيرين لأبي حيان: ٩٤.

والفرق بين طريقته في الازدواج التي انتهجها، مبتعداً عن السجع المتلكف، الذي ارتمى في أحضانه معاصروه، هو فرق في الدرجة الموسيقية، وفي مقدار التناسب بين أجزاء العبارة؛ ولذلك كان الازدواج مجالاً أوسع لتطوير الفكرة، والتحكم فيها، على عكس السجع، فإن صاحبه غالباً خاضع لطبيعة الموسيقى.

غير أنّ أبا حيان كان ينقاد لطبيعة عصره عندما تقدمت به السن، فنجد عنده قبولاً للسجع[1]، فهو إذن استعمله، ولكن ليس بكثرة الصاحب ولا بديع الزمان الهمذاني أو الحريري، فهو لا يطغى على ترسله، بل لا يقاربه أو يساويه، حتى يسلكه في عداد الساجعين. فقد كان يسجع في تعبيره عن عاطفته – كما يرى ذلك الحوفي[2] – وفي مواضع لا عاطفة فيها؛ لأنه وجد في الجمل المزدوجة، والجمل المسجوعة نغماً يطرب له، وصياغة تكفل لتعبيره القوة، والقبول والذيوع. وسجعه كله قصير الفقرات، متناسب القصر، مسوق في مهارة ولباقة لا تشعر القارئ بأنه تعمده أو اصطنعه، ولا شيء فيه من إهمال المعنى أو الطغيان عليه.

وكتابه فيه الكثير من الأسجاع التي تأتي ولا تحس بها، بل يُمرّها على عينيك مروراً سريعاً، وتراه أحياناً يزاوج بين سجعه والموازنة والترسل الحر المنطلق حيناً آخر. ولو قرأنا مثلاً حديثه – في مثالب الوزيرين – عن سبب القبض على أبي الفتح بن العميد، فعند تأمل هذه الرسالة نجد التوحيدي يمضي على الفطرة في الإنشاء، ثم يسجع ويوازن من سطر إلى آخر، حين يطيب له ذلك، ومن تلك الأسجاع قوله: "فكان يخلو بصاحبه ويوثّبه على أبي الفتح،

(١) انظر: أبو حيان التوحيدي لإحسان عباس: ١٤٥.
(٢)انظر: أبو حيان التوحيدي للدكتور الحوفي: ٣٨٢.

بما يجد إليه السبيل من الطعن والقدح"[1]، وقوله كذلك: "كلامك مسموع، ورضاك متبوع"[2] وقوله: "ليعرفن جبينه، وليفدقن حنينه"[3]، وقوله: "والله لا تجاورني في بلد السرير، وبحضرة التدبير، وخلوة الأمير"[4]، وقوله: "وأبلغ في ذلك ما يوجبه الحزم الصحيح، ويؤذن بالسعي النجيح"[5].

ومن موازناته قوله في القصة نفسها: "وألقى عصاه بها، ونفسه تغلي، وصدره يفور، والخوف شامل، والوسواس غالب"[6]، وقوله أيضاً: "هذا ابن كآمة وهو صاحب الذخائر والكنوز، والجبال والحصون"[7]، والكتاب مليء بالكثير من مثل هذا.

ولقد مال أبو حيان في كتابه إلى شيء من التضاد والتقابل، وربما كان ميله إلى ذلك رغبة في توضيح أفكاره، وإظهارها بمظهر القوة، فاستعملها وأحسن الاستعمال حقاً. فمن الألفاظ التي يظهر فيها هذا التضاد قوله: "وقلتَ: ينبغي أن تضيف إلى ذلك ما يتعلق به، ويدخل في طرازه، ولا يخرج عن الإفادة بذكره، والاستفادة من نشره، فإن ذلك يأتي على كل ما تتوق إليه النفس من كرم ولؤم، وزيادة ونقص، وورع وانسلاخ، ورزانة وسخف، وكيس وبله، وشجاعة وجبن، ووفاء وغدر، وسياسة وإهمال، واستعفاف ونطف، ودهاء وغفلة، وبيان وعيّ، ورشاد وغيّ، وخطأ وصواب، وحلم

(١) مثالب الوزيرين، لأبي حيان التوحيدي: ٣٥٢.
(٢) المصدر السابق: ٣٥٢.
(٣) المصدر السابق: ٣٥٢.
(٤) المصدر السابق: ٣٥٣.
(٥) المصدر السابق: ٣٥٤.
(٦) المصدر السابق: ٣٥٣.
(٧) المصدر السابق: ٣٥٦.

وسفه، وخلاعة وتمالك، ونزاهة ودنس، وفظاظة ورقة، وحياء وقحة، ورحمة وقسوة"[١].

وتظهر المقابلة في قوله: "وكما أنّ المنع في موضع الإعطاء حرمان، وكذلك الإعطاء في موضع المنع خذلان، وكما أنّ الكلام في موضع الصمت فضل وهذر، كذلك السكوت في موضع الكلام لكُنة وحصر"[٢].

وأما الجناس فقد قلل منه أبو حيان، حتى ليكاد يخفي على قارئه ما في كتابته منه؛ وذلك لمهارته، ولأنه لم يخضع المعنى له، ولم يتكلفه، بل كان الجناس في نثره عملاً تعبيرياً، مصدره النفس، لا العقل والصنعة.

٧ـ صوت النص النثري وإيقاعاته:

لقد أخذ التوحيدي نفسه ببناء التعبير على الازدواج تقليداً للجاحظ، غير أنّ هذا الازدواج نفسه عند أبي حيان كان أغنى وأحفل بالموسيقى، وأوفر سجعاً من الازدواج عند الجاحظ؛ لأنّ طبيعة القرن الرابع كانت تفرض على التوحيدي الاهتمام بالجرْس والنغمة، بينما كان تعصبه للجاحظ يقوي عنده الاهتمام بالفكرة[٣]. ومن الأمثلة على ذلك قوله: "وأحسنهم حالاً، وأسعدهم جداً، وأبلغهم يُمناً، وأربحهم بضاعة من كانت محاسنه غامرة لمساويه، ومناقبه ظاهرة على مثالبه، ومادحه أكثر من هاجيه وعاذله"[٤].

ولم يضر التوحيدي ألاّ يكون شاعراً، فإنه كان كاتباً موسيقياً، يحسّ قارئ نثره بأنه أمام نثر موسيقي، لما فيه من جرْسٍ قوي،

(١) مثالب الوزيرين للتوحيدي: ٨.
(٢) المصدر السابق: ٩.
(٣) انظر: أبو حيان التوحيدي، لإحسان عباس: ١٣٨.
(٤) مثالب الوزيرين لأبي حيان: ٢٠.

ونغمات متتابعة، قد وزنت وزناً متقارباً، لا تعدل جملةٌ عن أختها، بل تسير معها جنباً إلى جنب. فتقسيمه لجمله إلى فقرات قصار، متناسبة في الطول ولّد ذلك النغم، وذلك الرنين الذي يصحب غالباً بالازدواج، من مثل قوله: "وصاحبُ الفقر إن مدح فرّط، وإن ذمَّ أسقط، وإن عمل صالحاً أحبط، وإن ركب شيئاً خلط وخبّط، ولم أر شيئاً أكشف لغطاء الأديب، ولا أنشف لماء وجهه، ولا أذعر لسرب حياته منه، وإنّ الحرَّ الأنف، والكريم المتعيّف من مقاساته والتجلّد عليه، لفي شغل شاغل، وموت مائت"[1]، أي روعة أكثر من هذه الروعة، إنّ بعض الشعر ليقف عاجزاً دون الوصول إلى هذه المنزلة من اختيار الكلمات، وجودة الرصف، وحسن الإيقاع؛ وهذا كله رُزقه التوحيدي، لطبعه المؤاتي، وأسلوبه السهل الواضح.

وأخيراً:

فالكتاب من حيث أسلوبه آية من آيات البيان العربي، وهو بكل ما فيه من أسلوب أبي حيان بخلاف كتبه الأخرى. فقد يأتي فيها بما ينقله عن غيره، ولا يكون له فيه إلاّ الرواية. أما في هذا الكتاب فهو إذا جاء بكلام غيره أو رأيه فإنما يصوغه بلفظه وعبارته إلاّ أن يكون شعراً، ولذلك كان أسلوب الكتاب كله على نسق واحد، ودرجة واحدة من القوة. وقد شهد للتوحيدي بطول الباع، وامتلاك ناصية البيان.

(١) المصدر السابق: ٢٦.

خاتمة

آن للقلم أن يستريح بعد هذه الجولة في رحاب "مثالب الوزيرين" وفي شعابه المتشابكة، والتي كان يرافقنا فيها أحد أدلاّء البيان ممن خبر تلك المجاهيل، وعرف تلك المسالك، ألا وهو أبو حيان التوحيدي أبرز أدباء القرن الرابع الهجري قاطبة.

وإنّ أبرز ما يفاجئ المتتبع لأبي حيان وتراثه هو تناقض الأخبار التي أحاطت به، وتعارض الآراء في كل شيء صغر أم كبر في حياته وسيرته، ولم يكن يسلم له شيء من خبر ولادته إلى تاريخ وفاته، إذ كثر التخمين والافتراض والدسّ والتشويه بقصدٍ حيناً، أو بغير قصد أحياناً، ومن ثم كان أمام البحث متسع لتمحيص تلك الآراء وعرضها عرضاً موضوعيًا، ومحاولة الوصول إلى أحكام أكثر دقة وحيادية، اعتماداً على مؤلفات أبي حيان نفسه.

فأبو حيان قد ترك لنا إنتاجاً خصباً في كثير من العلوم والمعارف، سواء أكانت آثاراً أدبية أم فلسفية أم صوفية، أم في التراجم والجدل، ولولا إحراقه لكتبه لوصلنا أكثر مما هو بين أيدينا اليوم.

وقد رأينا أنّ شخصية أبي حيان قد طبعت بطوابع عدة، كونت منه شخصية مختلفة لم يكن لها مثيل في عصره، وذلك بسبب ثقافته المتنوعة، وكثرة شيوخه الذين صنعوا منه دائرة معارف عصره، وكانت نظرته المتشائمة للحياة بسبب ما لاقاه من حسد الحاسدين وحقد الحاقدين وتبخر أحلامه وآماله العراض، وهو أحد الأدباء المهمشين في وقت كانت فيه الصولة في بغداد للدولة البويهية رافعة لواء التشيّع، وما يتصل به من قمع للآخرين. ولكننا نجده مع ذلك يهرب من عالم البؤس والشقاء والكيد والاتهامات التي ألصقت به ظلماً إلى رحاب النكتة والفكاهة وعالم الضحك، حتى لكأنما هي

محاولة لإزالة الهموم التي أحاطت به أو لازمته ملازمة الغريم لغريمه.

وكان التوحيدي أسير ظروفه وبيئته المحيطة به، التي قدّست المادة، وعملت على جعلها المقياس الوحيد للوجاهة والمنزلة الرفيعة، وكان التوحيدي مع ما حصل له عند كبار القوم يرى نفسه أديباً بارعاً، وكاتباً بليغاً، فهو إذن جدير بالسعادة، قمين بنعم الحياة، فكيف إذن لا يشكو صرف الزمان حين لا يجد ذلك النعيم.

واستطاع أبو حيان ببراعة ودقة وصف الرجال وتحليل شخصياتهم في كتابه "مثالب الوزيرين"، وأبدع في تصوير خفايا النفوس وخباياها، فضلاً عن ظواهرها، مركزاً على تلك الصور ذات المنحى النقدي أو الهزلي، التي لم تكن تخلو من مبالغة وتهويل ظاهرَين، فكان بتلك الملامح في الطليعة بين أصحاب الأقلام الساخرة من رجالات الأدب الهزلي.

والكتاب بهذا يعدّ من أشهر كتب السير الغيرية، وكذلك من أشدّ ما فجّره الحنق والسخط المكين في الأدب العربي، وهو بالفعل كما وصفه المستشرق آدم متز بأنه أروع آيات النثر العربي ومن أحسن ما كتب في تصوير شخصيات الناس في القرن الرابع الهجري.

وأبو حيان بصنيعه هذا يكون قد خطا بمدرسة الجاحظ البيانية خطوات موفّقة، فقد وضع لها الأسس، وقعّد لها القواعد، وأتم البناء الشامخ الذي بدأه أستاذه أبو عثمان، واستطاع بأسلوبه المتميز وقدراته الفائقة أن يكون من أوائل الذين طوّعوا بعض الموضوعات للنثر وقد كانت ردحاً من الزمن حكراً على الشعر، وليس في طاقة النثر التعبير عنها بكفاءة واقتدار.

وبعد، فأتمنى أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه، وما توصلت إليه من أحكام واستنتاجات حول أبي حيان التوحيدي وكتابه "مثالب الوزيرين"، وإن لم يكن لي من التوفيق نصيب فحسبي أنّي قد بذلت جهدي نحو الوصول إلى الحقيقة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ثبت المصادر والمراجع

١- أبو حيان التوحيدي/ إبراهيم الكيلاني – الطبعة الثانية – دار المعارف – مصر.د.ت.

٢- أبو حيان التوحيدي/ إحسان عباس – دار بيروت للطباعة والنشر – ١٩٥٦م.

٣- أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء/ زكريا إبراهيم، الدار المصرية للتأليف والترجمة.د.ت.

٤- أبو حيان التوحيدي/ أحمد بن محمد الحوفي – مكتبة نهضة مصر – الفجالة – الطبعة الثانية – المقدمة عام ١٩٦٤م.

٥- أبو حيان التوحيدي: رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد/ محمد عبدالغني الشيخ ،الدار العربية للكتاب – ١٩٨٣م.

٦- أبو حيان التوحيدي/ عبد الرزاق محيي الدين – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٧٩م.

٧- أبو حيان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم/ محمود إبراهيم – الدار المتحدة للنشر.

٨- أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات/ عبد الأمير الأعسم – دار الشؤون الثقافية العامة، العراق – بغداد، الطبعة الثالثة – ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

٩- الأعلام ، لخير الدين الزركلي – دار العلم للملايين – بيروت.الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

١٠- الإمتاع والمؤانسة/ أبو حيان التوحيدي – تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين – دار مكتبة الحياة – بيروت.د.ت.

١١- أمراء البيان/ محمد كرد علي، دار الأمانة – بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م.

١٢- البصائر والذخائر/ أبو حيان التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني – مكتبة أطلس – دمشق – ١٩٦٤م.

١٣- بغية الوعاة/ السيوطي – مطبعة عيسى الحلبي.

١٤- تجارب الأمم/ مسكويه – شركة التمدن – ١٩١٥م.

١٥- حرق الكتب في التراث العربي/ ناصر محمد الحزيمي، مشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، الطبعة الأ،لى ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٣م.

١٦- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع/ آدم متز، ترجمة عبد الهادي أبي ريدة – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٣٧٧هـ – ١٩٥٧م.

١٧- سيكولوجية الفكاهة والضحك/ د. زكريا إبراهيم – مكتبة مصر.

١٨- شرح ديوان أبي الطيب المتنبي/ المعرّي، تحقيق عبد المجيد دياب – دار المعارف– مصر.

١٩- الصداقة والصديق/ أبو حيان التوحيدي – شرح: علي متولي صلاح – مكتبة الآداب – ١٩٧٢م.

٢٠- طبقات الشافعية/ السبكي، تحقيق: عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي – مكتبة عيسى الحلبي – ١٩٦٦م.

٢١- ظهر الإسلام/ أحمد أمين – مكتبة النهضة المصرية – ١٩٥٥م.

٢٢- فلسفة الفن عند التوحيدي/ عفيف البهنسي – دار الفكر – دمشق – الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

٢٣- مثالب الوزيرين/ أبو حيان التوحيدي – تحقيق: إبراهيم الكيلاني – دار الفكر – دمشق – ١٩٦١م.

٢٤- معجم الأدباء/ ياقوت الحموي – نشره: دافيد صمويل مرجليوث – طبعة أحمد مزيد الرفاعي – دار إحياء التراث العربي – مقدمة الطبعة الثانية عام ١٩٢٢م.

٢٥- معجم المؤلفين/ عمر رضا كحّالة – مكتبة المثنى – بيروت، ودار إحياء التراث العربي – بيروت. ١٩٨٥م

٢٦- ميزان الاعتدال في نقد الرجال/ الذهبي - مكتبة عيسى الحلبي.

٢٧- النثر الفني في القرن الرابع/ زكي مبارك - المكتبة العصرية - بيروت - ١٣٥٢هـ - ١٩٣٤م.

٢٨- الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي - لطف الله قاري - دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع - الرياض - الطبعة الأولى - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٢٩- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر/ الثعالبي - تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد - مطبعة حجازي.